جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
بإيتاي البارود

مناظرة السيف والقلم

في ثلاث رسائل تراثية

"دراسة أدبية"

الباحث الدكتور

جابر بن بشير المحمدي

الأستاذ المشارك بقسم الأدب والبلاغة
كلية اللغة العربية الجامعة الإسلامية
المدينة المنورة

المُقَدِّمَة

الحمد لله، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

فإن النثر قسيم الشعر، حيث عرف العرب الخطابة، وأدركوا أثرها في النفوس، وما يحمله الخطيب من شرف الدفاع عن القبيلة ببيانه وسمو بلاغته؛ فقد كانت الخطابة "من مختصات سادتهم الذين يتكلمون بأسمائهم في المواسم والمحافل العظام، ومن أجل ذلك تقترن الخطابة بالحكمة والشجاعة".(١)

ثم علا شأن الخطيب حيث شاركت الخطابة الشعر في موضوعاته كالمفاخرة والمناظرة، والمدح، والهجاء، والحض على القتال، ويزيد عن الشعر بالخطابة في الوفود على الملوك، والنصح والإرشاد، والدعوة إلى السلم، أو إيقاف سفك الدماء؛ خلاف الشعر الذي يورث الأحقاد بدعوته إلى الأخذ بالثأر وإشعال الحرب".(٢)

كما عرف الأدب العربي فن الرسالة، وازدادت أهميتها في عصر النبوة، والخلافة الراشدة، حيث اشتدت الحاجة إليها في الدعوة وتبليغ رسالة الإسلام، ثم تطور هذا الفن في أوائل عصر بني أمية، وبدا الكتاب يصنعون أصول الكتابة ورسومها الفنية، وزادت مكانة وتأثيراً في العصر العباسي، حيث برز الكتاب المتقنون فن كتابة الرسائل؛ فتنوعت أنواع الرسائل إلى ديوانية،

١- الجاحظ: البيان والتبيين، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط ٧، القاهرة، ١٩٩٨، ١-٣٦٢

٢- ينظر شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، ط ١٣، القاهرة، د. ت، ١-٢٨.

وإخوانية، واجتماعية، وظلت الرسائل فنًّا قائمًا بذاته، ونافس فيه الكتاب الشعراء، وازدادت أهميته بعد أن أصبح الكاتب وزيرًا ومستشارًا، ينوب عن الخليفة في تصريف شئون الدولة.

وفي ظل هذا الازدهار في فن الرسائل، تبارى الكتاب في رسائلهم مظهرين البراعة في الكتابة، ويبرزون ما حوته عقولهم وصدورهم من العلم والأدب.

ومن صور منافستهم في هذا الفن كتابة الرسائل في شتى الفنون، حتى أضحت الرسالة مصدرًا من مصادر المعرفة، كما يعرف من كتاب رسائل الجاحظ، وغيرها التي حوت رسائل متنوعة الموضوعات والفنون.

وبقى الاهتمام بالرسالة حتى القرن الثامن الهجري، وظل للكتاب منزلتهم عند الولاة والوزراء، وظل الكتاب يتبارون في إبراز مهاراتهم الكتابية والفنية؛ فحافظوا على بقاء الرسائل منافسة للشعر في عالم الأدب.

وفي هذا القرن ظهر نوع جديد من الرسائل هو أدب المناظرات الحجاجية، والعلمية والأدبية، وأصبحت مجالا أدبيا، يعرض فيه الأدباء قدراتهم وفنهم الرفيع، ومن تلك المناظرات **المناظرة بين السيف والقلم** التي شاع الحديث حولها في هذا القرن، حتى وإن لم تكن من ابتكار المشرقيين، حيث سبقهم ابن برد الأصغر (ت٤٤١هـ) في الأندلس، إلا أن المشرقيين زادوا هذا الفن تطوروا وثراءً وقوة.

وأسهم فيه أشهر كتاب هذا العصر؛ فنجد منهم: محمد بن عمر المظفر **الوردي** (ت ٧٤٥هـ)، ومحمد بن محمد ابن **نباتة** المصري (ت ٧٦١هـ)، ومحمد بن أحمد **القلقشندي**، مؤلف صبح الأعشى (ت ٨٢١هـ).

وقد عني المحققون بنشر هذه الرسائل، فقد حقق الأستاذ هلال ناجي رسالتا "**السيف والقلم**" لابن نباتة المصري، وابن الوردي في مجلة المورد

العراقية المجلد الثاني عشر، العدد الرابع عام ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م، وهي من أكبر الرسائل حجمًا، وأوفرها مادة، فقد أفرط ابن نباتة في العناية بالأسلوب والصياغة اللفظية كما سيتضح خلال الدراسة.

أما رسالة القلقشندي فقد وردت في كتاب "**صبح الأعشى في صناعة الإنشا**"، وسماها المؤلف "**حلية الفضل وزينة الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم**"، وقدم لها الكاتب بمقدمة موجزة، ثم أجرى المناظرة بين السيف والقلم، وتتسم الرسالة عامة بالإيجاز على غرار ما جاءت به رسالة ابن الوردي.

والرسائل الثلاثة تحمل في مضمونها مادة أدبية، تعين على تصور المستوى الأدبي في هذا القرن، وسماته الأسلوبية.

ولما وجدت أن هذه الرسائل لم تدرس رغم تناولها لهذا الموضوع الهام في الأدب، وفي أدب الإنسانية عمومًا؛ حيث تمثل الأداتان "**السيف والقلم**"، وما شابههما في كل عصر أدوات المجد، وتحصيل الشرف، ورفعة المنزلة، درستها دراسة فنية في أسلوب قريب التناول؛ رغبة في الإفادة منها؛ ولتفتح آفاقًا جديدة للباحثين في تناول هذ النوع البديع من الرسائل.

وجعلتها في مبحثين، الأول: يحدد المضامين العامة للرسائل في وصفهم للسيف والقلم، والآخر لدراسة الخصائص الفنية للرسالة في بنائها وسمات أسلوبها، والصورة الفنية في كل رسالة، وقد اجتهدت في استيفاء محاور الدراسة بصورة تتوافق مع طبيعة البحث وحجمه، وما يتطلبه البحث العلمي من أسس ومعايير.

والله ولي التوفيق

الباحث

تمهيد

الفرق بين الشعر والنثر:

شُغِلَ الدارسون بالمفاضلة بين الشعر والنثر، بين مؤيدين للشعر مقدمين له على النثر، ومؤيدين للنثر مقدمين له على الشعر، ومن أولئك المقدمين للنثر المنتصرين له؛ المرزوقي في شرح حماسة أبي تمام، واحتج **له بثلاثة أسباب:**

- **أولها:** أن الخطابة كانت لدى الجاهليين أهم، وكانوا يعدونها أكمل أسباب الرياسة، وأفضل آلات الزعامة، وكانوا يأنفون من الاشتهار بقرض الشعر، ويعده بعض ملكوهم دناءة.
- **ثانيها:** أن الشعراء حطوا من قيمة الشعر باتخاذهم الشعر مكسبة وتجارة؛ فمدحوا، وتعرضوا لأعراض الناس؛ فوصفوا اللئيم عند الطمع فيه بصفات الكريم، والكريم عند تأخر صلته بصفات اللئيم.
- **ثالثها:** أن الإعجاز بالقرآن لم يقع بالشعر وإنما بالنظم.

ولهذه الأسباب كان النثر – عنده – أرفع شأنًا من الشعر، ومن ثم تأخرت مرتبة الشعراء عن الكتاب".([1])

وأيضًا من المقدمين للنثر ابن شهيد الأندلسي في رسالته التوابع والزوابع، ففي حواره مع زهير بن نمير، ومذاكرتهم الخطباء والشعراء؛ يسأله ابن عميرى "فيمن تريد أن نبدأ؟ قلت الخطباء أولى بالتقديم"([2]) وهو يقصد بالخطباء الكتاب؛ مثل الجاحظ وعبد الحميد الكاتب وغيرهما.([3])

١- المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، ت: أحمد أمين، عبد السلام هارون، دار الجيل، ط١، بيروت،١٩٩١، صـ١٦-١٨.

٢- أبو الحسن علي بن بسام: الذخيرة في محاسن أهلى الجزيرة، ت: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، صـ٢٢٨.

٣- أبو محمد علي بن محمد ابن حزم: رسائل ابن حزم الأندلسي، ت: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت، صـ٦٧.

ورأى ابن شهيد أن تقديم النثر على الشعر عام لدى الأدبـــاء الأندلـــسيين، ووافق في ذلك ابن حزم؛ أما السرقسطي فقد حاول في مقاماته الموازنة بينهما، حيث خصهما بمقامة "النثر والنظم"(١)، وعرض آراء أنـــصار الـــشعر، وآراء المفضلين للنثر عليه؛ فدفع عن الشعر ما يثار حوله من الكذب، وتصريفه فـــي الأغراض المرذولة، ودافع عن النثر "بأن افتقاده النظم والوزن لا يضيره ما دام رائقًا في لفظه وتعبيره، جميلا في شكله.(٢)

ودعا السرقسطي إلى ترك المفاضلة بين الشعر والنثر، فكـــلٌّ منهمـــا فـــن قولي...، ولكل منهما فضله في مجاله؛ فيقول مخاطبًا أهل الحجاج في المفاضلة بينهما "فلا تفضلا قائلا على قائل إلا بفضل فاضل، وطول طائـــل، والإحـــسان ضروب، والشمس طلوع وغروب... وخذا في كل الأحوال بالأعدل الأقـــسط، ميلا إلى السهل والأبسط، لا تعدلا عن السواء الأوسط".(٣)

ويفضل الكلاعي النثر على الشعر لعلة دينية؛ فإن الشعر يحمـــل الـــشاعر على الغلو في الدين، أو الفساد في العقيدة، وقد يحمله على الكذب؛ أما النثر فهو "الأصل الذي أَمِن العلماء – لامتزاجه بطبائعهم – ذهاب اسمه فأغفلوه، وضمن الفصحاء – لغلبته على أذهانهم – بقاء رسمه فأهملوه، ولم يحكموا قوانينه، ولا حصروا أفانينه؛ وأما النظم ففرع تولد منه، ونور تطلع عنه؛ فرأى العلمـــاء –

١- أبو الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي: المقامات اللزومية، ت: حسن الوراكلي، جدار للكتاب الجامعي، عمان ، صـــ٥٤٧-٥٦٥.

٢- شريف راغب العلاونة: المفاضلة بين الشعر والنثر في التراث النقدي الأندلسي، مجلـــة كلية الشريعة للدراسات الإسلامية واللغة العربية وآدابها، ط١٨، ١٤٢٧هـــ، صـــ٤٦٨.

٣- السرقسطي: المقامات اللزومية، صـــ٥٥٨.

خوفاً أن تتحيف الأزمان ما اختص به من القوافي والأوزان – أن يَعدّوا سواكنه وحركاته، ويحكموا قوانينه وصفاته، ويلقبوا ذلك ألقابا، ويبوبه أبوابا".([1])

ويذكر الكلاعي حبه الشعر في شبابه؛ فقد كان مولعًا بترصيعه وتصنيعه، مائلاً إلى تقريضه وتشنيفه، ولكنه مال إلى النثرعن ذلك" منزعا كريما من علم الديانة، واقتصرت من قسمي البلاغة على قسم الكتابة؛ لأنها أقوى عاملا، وأرجح حاملاً، وأكرم طالبًا، وأسلم جانبًا".([2])

ويطلق النثر على "الكلام الفني الجيد الذي يرسله قائله، أو كاتبه إرسالا بلا وزن ولا قافية... يقابل النظم، أو الشعر المنظوم بالوزن والقافية".([3])

والنثر في ظل هذا المفهوم صالح للتعبير الحر غير المقيد بوزن ولا قافية عما في أذهاننا من خواطر ومشاعر، وما تقع عليه حواسنا من مشاهد وصور؛ إما لغاية الشرح، أو إبداع في تصوير الأثر المنعكس على النفس من خلال موقف عام، أو أدبي، أو تاريخي في خطبة، أو رسالة، أو مقالة، أو فني أدبي سردي آخر كالقصة أو الرواية أو المسرحية، ولكل نوع من هذه الأنواع النثرية أصول فنية يراعيها الأديب عند الكتابة.

وعرف الأدب العربي الرسائل الأدبية المتنوعة في موضوعات أدبية شتى؛ فمنذ دخل فن الكتابة الأدب العربي، ونافس الشعر والخطابة والوصايا... وغيرها في الإبداع؛ ظهرت رسائل أدبية متنوعة في الأدب العربي تعالج

١- أبو القاسم الكلاعي: إحكام صنعة الكلام، ت محمد رضوان الداية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦، صـ٣٩-٤٠.

٢- الكلاعي: إحكام صنعة الكلام، صـ٣٥.

٣- نوار بالة: أدبية الخطاب النثري عند القاضي العياض، ماجستير جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر،١٤٣٠هـ، صـ٢٢.

موضوعات شتى لأعلام الكتاب، كالجاحظ وغيره، وعنى الدارسون والمحققون بجمعها وتحقيقها، أو دراستها باعتبارها فنًّا قوليًا أسهم إسهامًا قويًّا في تسجيل الحضارة الإسلامية، وحضر في مدونة الثقافة العربية، واحتل مكانًا بارزًا في الموروث الأدبي العربي منذ القرن الثاني الهجري.

وقد جمع وحقق الأستاذ: عبد السلام محمد هارون، رسائل الجاحظ في مجلدين كبيرين، وجمع في كتابه أشتات عدة رسائل أخرى لكتاب آخرين، وكان لجهده المشكور أثر في استحضار هذا التراث النثري الغائب عن القارئ العربي.

وعني علماء ودارسون آخرون بتتبع رسائل أدباء آخرين، ونشروا بعضًا منها؛ لطرافة موضوعها، وإبرازعناية الكتاب بالموضوعات الحية التي يعنى بها القارئ، وتلامس شغاف قلبه، ولم يشغل المتلقي للأدب العربي موضوعًا كالحديث عن السيف والقلم؛ فالموازنة والمفاخرة بينهما قائمة في الشعر والنثر، وتحدث كثير من المؤلفين عن تلك المناظرات الإبداعية بين الأداتين، في نصوص أدبية تنم عن خيال أدبي راق، وإبداع فني معبر، ينطلق من الأدب التخييلي؛ حيث يتصدر الخيال والتصور ما يرسمه الأديب في حديثه عن الأداتين.

ومن تلك الرسائل؛ **ثلاث رسائل** في المناظرة بين السيف والقلم:

- **الأولى للأديب: محمد بن عمر بن المظفر الوردي ٧٤٥هـ (١)**

١- نص الرسالة موضع الدراسة في ديوان ابن الوردي بالآستانة، طبعة ١٣٠٠هـ، و حققها: هلال ناجي في مجلة المورد، مج ١٢، عدد ٤، ١أكتوبر١٩٨٣، بغداد، ص ١١٥.

- **الثانية للأديب: محمد بن محمد ابن نباتة المصري ٧٦٨هـ ([1])**
- **الثالثة للأديب: أحمد بن علي بن الفزاري القلقشندي ٨٢١هـ ([2])**

مفهوم المناظرة في اللغة والأدب:

هي تأمل الشيء ومعاينته، والتفكر فيه وتقديره وقياسه، وجاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس أن "النون والظاء والراء أصل صحيح يرجع إلى معنى واحد؛ فهو تأمل الشيء ومعاينته"([3]) والمناظرة على وزن مفاعلة، والمفاعلة هي إثارة الفعل أو "تحريك الفعل بين اثنين"([4])، وجاء في المعجم الوسيط "ناظر فلان فلانًا، صار نظيرًا له، وباحثه وباراه في المحاجة، والشيء بالشيء جعله نظيرًا له"([5])

المناظرة في الاصطلاح:

قال الراغب الأصفهاني: "اعلم أن المناظرة في اللغة مأخوذة من النظير أو النظر بمعنى البصر، وفي الاصطلاح هي النظر بالبصيرة من الجانبين بالنسبة بين الشيئين إظهارا للصواب".([6])

١- نص الرسالة موضع الدراسة في ديوان ابن الوردي بالآستانة، ص ١٢٣.

٢- أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ت: يوسف علي الطويل، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٧. ٢٦٣/١٤.

٣- ابن فارس: مقاييس اللغة، ت عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩.ج ٥، ص ٤٤٤.

٤- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ. مادة نظر، ص٤٤٦

٥- مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، دار الفكر، بيروت، د. ت، مادة (نظر)، ج٢، ص ٩٣٢.

٦- طاش كبرى زاده: الآداب في علم البحث والمناظرة، ت حايف النبهان، الظاهرية الكويت،٢٠١٢، ص ٤٢.

والمناظرة: هي في الأصل محاورة بين طرفين لكل منهما وجهة نظر تخالف وجهة الآخر؛ فيحاول كل منهما إثبات صحة رأيه، ودحض حجة خصمه؛ ليسقط فرضياته بما يملك من براهين منطقية، دون الدخول في صراع جدلي؛ فطرفا المناظرة يحاولان الوصول إلى رأي مشترك في قضية ما، بهدف الموضوعية وليست النسبية التي يؤمن بها أحدهما، ومعرفة الحقيقة؛ فالمناظرة هنا هي وسيلة تواصلية، ومجادلة بالتي هي أحسن؛ لأنها فن المنطق، وحسن التفكير، والاحتكام إلى العقل والتحاور.

وللمناظرة شروط أوردها الأصفهاني حيث قال: "اجتمع متكلمان فقال أحدهما: "هل لك في المناظرة؟" فقال: "على شرائط، ألا تغضب، ولا تعجب، ولا تشغب، ولا تحكم، ولا تُقْبل على غيري وأنا أكلمك، ولا تجعل الدعوى دليلاً، ولا تجوز لنفسك تأويل آية على مذهبك وإلا جوّزت لي تأويل مثلها على مذهبي، وعلى أن تؤثر التصادق وتنقاد للتعارف، وعلى أن كلاً منا يبني مناظرته على أن الحق ضالته، والرشد غايته" (١)

وتعود بداية مناظرات السيف والقلم إلى **أبي تمام**؛ فقد عقد مناظرة شعرية في فتح عمورية، وكانت نتيجة المناظرة هي" الانتصار للسيف حسب قوله:

السيف أصدق إنباء من الكتب ** في حده الحد بين الجد واللعب(٢)

١- الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦١م.

٢- أبو تمام: الديوان، مراجعة محمد عزت نصر، دار الفكر، بيروت ، د ت.

المبحث الأول

مضامين المناظرة في الرسائل الثلاثة

أولًا: الغرض من إنشاء الرسالة:

أنشأ الأدباء الثلاثة رسائلهم، استجابة لأغراض أدبية وفكرية؛ أما الأغراض الأدبية فهي عمد الأديب إلى إظهار قدرته الفنية على صوغ فكرته بأسلوب أدبي مبين، ومفاخرته أقرانه بما يبدعه في ذلك، ومنه قول القلقشندي في وصفه خدمته في بلاط المقر الزيني الظاهري، فقد أنشأ رسالته "**حلية الفضل وزينة الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم**"؛ إرضاء لعاطفة المقر الزيني، يقول عن ذلك:

"هدى الله (ﷻ) بفضله إلى وجوه الترجيح كل علم على خصمه، ويفلج به على غيره، والمصنف يعرف لذلك حقه، والذي أعانني على ذلك جلالة قدر من صنفت له، وعلو رتبته، واتساع فضله، وكثرة علومه، وتعدد فنونه؛ إذ صفات الممدوح تهدي المادح وترشده".([1])

وهكذا عند ابن نباتة المصري الذي جعل الغاية في إنشاء رسالته أنه "كان مما خطر للملوك بارحة أمسه، وهجس في نفسه، وعرضت عليه جياد معانيه بالعشرة... ذكر السيف والقلم اللذين هما طراز حلة الدول، وركنا الملك المشيد عليهما مراتب القول والعمل... ثم إن المملوك فكر في أيهما أتم نفعًا، وأرجح صنعًا، وأخصب، وأحفظ لروض الملك إذا هم الدهر يبغي فيه تبعًا، فمثلهما الملوك في ذهنه، واستخبر خيال تخيله وأرث بينهما بالفكرة القادحة نار

١- أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤/ ٢٦٤.

المحاورة، واستنطق لسان حالهما المفصح الصامت وطلب الجواب المسكت من الجواب الساكت، وربما كان لسان الحال أبلغ، ونطق المنظر أحلا وأسوغ".([1])

فغاية ابن نباتة المصري هي: **إبراز القدرة الكتابية على إنشاء الرسالة، وإظهار براعة الكتابة، ومباراة الأقران في الإبداع، والتمرس على الكتابة الوصفية المميزة.**

ولم يذكر لنا ابن الوردي سبب كتابة الرسالة، ولكن القارئ لها، يدرك بجلاء حرص ابن الوردي وإلحاحه على إبراز براعة قلمه، وجودة صنعته في إنشاء ما يكتب، فقد حشد في متن الرسالة جملا اصطنعها، لإظهار البراعة ونشر بضاعته اللغوية، وسعة معجمه الكتابي، وقدرته على تلوين العبارة، والتفوق في ذلك.

والرسائل الثلاثة من الرسائل الأدبية العامة التي تدخل في فن الرسائل الاجتماعية، وهي "تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم، وتعكس جوانب حياتهم الاجتماعية، وتعبر عن علاقات الأفراد ومشاعرهم تجاه بعضهم البعض، أو ما ينعكس على وجدانهم من صروف الدهر ومجريات الأحداث."([2])

و"الكاتب فيها حر طليق في التعبير عن مشاعره، لا تحده حدود الديوان، ولا تأسره الحياة السياسية بموضوعاتها الرسمية؛ فهي أدخل في الناحية الفنية من الرسائل السياسية، وهي أفسح منها مجالا، وأخصب خيالا، لا يحدها إلا ذوق الأديب، أغراضها جمة وأساليبها منوعة..."([3])

١- محمد بن نباتة المصري: رسالة السيف والقلم، مجلة المورد، ص ١٢٧.

٢- نبيل رباح: نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي ٦٥٦هـ، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩٣م، صـ٢٧٥.

٣- السابق، صـ٢٧٥.

واتخذت رسائل وصف السيف والقلم شكل المناظرة، حيث ينتحل فيها الكاتب شخصية المتناظرين، فينطق على لسانيهما ما يفيض به فكره، وأصل هذا النوع من الرسائل مشرقي جرى في كتابات المشرقيين، كسهل بن هارون في رسالته "في تفضيل الزجاج على الذهب"([1]) ثم عنى بها الأندلسيون، واهتموا بتجويد صنعتها؛ ففاقوا بها المتشرقيين ونافسوا بها الشعر في الوصف، والتغني بالمشاعر، ووصف العواطف، والموضوعات الأدبية المتنوعة.

وقد حرص الأدباء في الرسائل الثلاثة على حصرها في موضوعها وهو المناظرة بين السيف والقلم، وذكر صفات كل منهما من خلال إجراء مناظرة ومحاجة بينهما في تعداد خصائصه، وما له من الميزات التي يتفوق بها على نظيره، وجرت المناظرة في قالب محدد بأن يبدأ أحدهما بالحديث ثم يجيبه الآخر بجواب مسكت، وينبري له الخصم بدحض حججه، وهكذا حتى ينتهي المشهد باستسلام أحدهما للآخر والرضا بالتسليم، والتوقف عن الجدال، ويغلب أن يكون ذلك القلم، نظراً لرقة طبعه، وما له من صفات العقل وصائب الفكر والحكمة. ([2])

ثانيا: وصف القلم وخصائصه:

تضمنت الرسائل الثلاثة بياناً لمنزلة القلم، وشرف مقامه، وخطورة أثره، لما خص به من الأعمال، ووكل إليه من المهام، فنجد ابن الوردي يصف القلم على لسانه محاجًا السيف بقوله:

١- أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، بيروت، د. ت، ٣/ ٣٩٥.

٢- القلقشندي: رسالة حلية الفضل، ١٤ / ٢٧٢.

"أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين "يفاخر وهو قائم عن الشمال الجالس عن اليمين... فاقتبس الآية الكريمة في ذكر صفة العلم بأنه أداة الحجاج، وشبهه بالمرأة في ضعفها، ثم يسرد صفات القلم في تركيب حجاجي بديع، مقابلا للصفات بينه وبين السيف، مفاخرا له فيما امتلك من السمات المميزة، فعن نفسه يقول "أنا المخصوص بالري وأنت المخصوص بالهدى، أنا آلة الحياة، وأنت آلة الردى.....أنت تنفع في العمر ساعة، وأنا أفني العمر في الطاعة، أنت للرهب وأنا للرغب، فإذا كان بصرك حديدا فبصري من ذهب، أين تقليدك من اجتهادي؟ وأين نجاسة دمك من طهارة مدادي؟".([1])

وهكذا جعل من صفات القلم: الري بالمداد، وهو آلة الحياة، مع استمرار نفعه دون انقطاع، وهو مجتهد لا ينقطع عن عمله، وباطنه وما يلفظه طاهر، وما يسيل على شفرات السيف إنما هو دم نجس، ومنظره ما ذهب برونقه على خلاف السيف الذي يشي منظره بأصله الحديدي مقتبسا من الآية "فبصرك اليوم حديد".([2])

ومن صفات القلم أنه لسان الأدب ومصدر اللطف، ومصدر السمع والطاعة؛ جمع الله له الزكاة والطهر، والحلم، والاعتدال، والتوسط.

والقلم أشد لومًا، وأكثر اطرابًا، وأشد غلبة، وهو أعتب وأكثر حزمًا وقبضًا في الحكم، يقول عنه ابن الوردي على لسانه: "إن كنت أعلم فأنا أعلم، أو كنت أحلى فأنا أحلم، أو كنت أقوى فأنا أقوم، أو كنت أغلى فأنا أغلب، أوكنت أغنى فأنا أعتب، أو كنت أقضى فأنا أقضب".([3])

١- رسالة ابن الوردي، مجلة المورد، صـ١٢٢.

٢- سورة ق، آية ٢٢.

٣- رسالة ابن الوردي، مجلة المورد، ص ١١٩-١٢٢.

أما صفة القلم عند ابن نباته المصري فيجمعها في قوله: "القلم منار الدين والدنيا، ونظام الشرف والعليا، ومخارج سحب الخير إذا احتاجت الأمم إلى السقيا، ومفتاح باب اليمن المجرب إذا أعيا، وسفير الملك المحجب، وعذيق الملك المرجب، وزمام أموره السائرة، وقائمة أجنحته الطائرة، ومطلق أرزاق عفاته المتواترة، وأنملة الهدى المشيرة إلى ذخائر الدنيا والآخرة، به رقم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل، وسنة نبيه (ﷺ)، التي تهذب الخواطر الخواطل، فبينه وبين من فاخره الكتاب والسنة، وحسبه ما جرى على يده منّة، وفي مراضي الدول عونه للشائدين، وبعين الله في ليالي النفس تقلب وجهه في الساجدين، وإن نظمت فرائد العلوم فإنما هو سلكها، وإن علت أسرة الكتب فإنما هو فلكها، وإن رقمت برود الألفاظ فإنما هو جلالها، وإن تشبعت فنون الحكم فإنما إليه مآبها،.... وإن تقسمت أمور الممالك فإنما هو عصمها وثمالها، وإن سئمت أفلاك الأقاليم فإنما عليه مدارها، وإن أسيت جراح الأموال السائل دم تبرها فإنما هو مسبارها".([1])

وهذا الوصف الجامع لخصائص القلم لخص فيه ابن نباتة جملة من الصفات، فهو أداة كتب الطلب واستفتاح الخيرات، وما تستعفي به الجماهير الولاة، وهو أداة الملوك في سفارتها بينها وبين رعاياها، وبريدها إليهم وهو وسيلة الدعاة الهداة إلى ذخائر الدنيا والآخرة، والوسيلة التي كتب بها كتاب الله تعالى، وتسجيل سنة نبيه (ﷺ) وشهد الكتاب والسنة بذلك، وهو لسان المؤيدين للدول، والمستبدين بعزها، وتسجل به العباد ابتهالاتهم حين تقلب وجوه الساجدين.

١- رسالة ابن الوردي، مجلة المورد، ص ١٢٨

والقلم أيضًا، تنظم به العلوم، وتسطر به الرسائل، وتسجل به الحكم والآداب، وهو عصم الممالك يحاجج عن الملوك في حال التمرد والعصيان، ويواسي الجراح بما يكتب من لطيف القول، والقلم رب الصنائع وإمامها، وهو المستخرج به نفائس بحار الأفكار ودرها، وبظلمات مداده تجلب المنافع، وتستجلب المناصب، وهو لسان الملوك ورسولها في الفتوح، والمدافع عنها في حال وقوع المهالك، والمجاهد عن الدول بدحض حجج أعدائها، والجاري بما أمر الله به من العدل والإحسان".([1])

ويلخص ابن نباتة أدق صفات القلم بقوله: "وأوتي من المعجزات النبوية نوعًا من النصر بالرعب، وبعث جحافل السطور.... فهو صاحب فضيلتي العلم والعلم، وساحب ذيل الفخار في الحرب والسلم".([2])

ويستخدم ابن نباته المقابلة في ذكر صفات القلم على لسانه محاجا السيف حين يقول: أتفاخرني وأنا للوصل وأنت للقطع، وأنا للعطاء وأنت للمنع، وأنا للصلح وأنت للضراب، وأنا للعمارة وأنت للخراب، وأنا للجمع وأنت للشتات، وأنت للطيش وأنا للثبات، وأنا للرضا وأنت للغضب... وأنت المقَّلد وأنا صاحب التقليد... هيهات أنا المنتصب لمصالح الدول وأنت في الغمد طريح، وأنا الجالس عن يمين الملوك وأنت عن يسارها...([3])

ويذكر لون السيف ولون القلم؛ فيذكره بلونه الأبيض الشيب، وهو ضعف وعجز، ولون القلم السواد في مداده وهو يشبه سواد شعر الشباب مناط القوة

١- رسالة ابن نباتة، ص ١١٩.

٢- السابق، ص١٢٠.

٣- نفسه، صـ١٢٦.

والفتوة. "أين عينك الزرقاء من عيني الكحيلة، ورؤيتك الشعناء من رؤيتي الجميلة؟ أين لون الشيب من لون الشباب..."([1])

وبذلك يحصر ابن نباته صفات القلم في النفعية، وفي اللون، وفي الأثر النفسي لمنظر القلم؛ فالمنافع يجمعها القلم بما يكون به من الوصل والعمارة، والصلح، والثبات، والرضا، والتقليد، والقائم بمصالح الدنيا، وشرف المكان في مجالس الملوك مع ما له من لون الشباب، ونظرة مشوقة تبعث على الارتياح، وقد سلب تلك الصفات من السيف؛ لتتضح صورة القلم.

أما القلقشندي في رسالته فجاء كلامه عن صفة القلم وخصائصه مختصرًا موجزًا في أسلوب حواري بين السيف والقلم، فيورد للقلم قوله: "إني لأول مخلوق بالنص الثابت...أقسم الله بي في كتابه، وشرفني بالذكر في كلامه لرسوله وخطابه؛ فقال (ﷻ) "**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ {١} مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ** "([2]) وقال جلت قدرته " **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** "([3]) فكان لي من الفضل وافر القسمة، وخصصت لكمال المعرفة؛ فجمعت شوارد العلوم، وكنت قيم الحكمة".([4])

إذا صدر القلقشندي حديثه عن صفات القلم بذكر شرفه، وما أوكل إليه الله من شريف الأعمال، وزاد عليها فضله بكتابة العلم، وما قسم للعباد من الخير من الهبات والعطايا، وهو خازن الحكمة، وحافظ شوارد العلم.

١- رسالة ابن نباتة، ١٢٦.

٢- سورة القلم، آية: ١-٢.

٣- سورة العلق، آية: ٣-٥.

٤- صبح الأعشى، ١٤ / ٢٦٥.

وفي محاجة السيف له يرد القلم واصفًا نفسه بقوله: "إني لمبارك الطلعة وسيمها...آخذ بالفضائل من جميع جهاتها، مستوف للمادح بسائر صفاتها، فطائري ميمون، وغولي مأمون، وعطائي غير ممنون، أصل وتقطع، وأعطي وتمنع، وتفرق وأجمع... فإني الفعال، وإن نحف بدني فإني الشديد البأس عند النزال...".([1])

ويجمع له عددًا من الصفات المعنوية، عدا ما ذكر له من نحافة البدن، وصغر الجرم، والعري، وسيلان الدمع، وأراد به المداد، وخلوه من صفات البطش التي يتصف بها السيف؛ يذكر ذلك في قوله: "وإن عرى جسمي فكم كسوت عاريًا، وإن جرى دمعي فكم أرويت ظاميًا، وإن ضاق ذرعي فإني بسعة المجال مشهور، وإن قصر باعي فكم أطلقت أسيرًا وأنا في سجن الدواة مأسور"([2])

فذكر له من الصفات ما يقوم به، وما لم يستطعه الكاتب باستخدامه القلم، فنال به شرف الصفة على سبيل المجاز العقلي وعلاقاته السببية، فما أسند إلى القلم ليس له حقيقة وإنما للكاتب؛ فأمضاها القلقشندي للقلم باعتباره السبب في إحداثها.

ثالثًا: وصف السيف وخصائصه:

يلحظ في الرسائل الثلاثة عدم إسهاب الكتاب في وصف السيف على نحو إطنابهم في ذكر القلم وخصائصه، ولعل ذلك يعود إلى أنهم جميعًا من الكُتَّاب، والقلم أداتهم، وأرادوا المبالغة في وصفه؛ لتأكيد شرفه، وشرف صناعته،

١- صبح الأعشى، ١٤ / ٢٦٨.

٢- السابق، ١٤ / ٢٦٨.

وإقرار تفرده بالفضل على السيف؛ وإن وجدنا ابن نباته المصري يصدر رسالته بالمساواة بينهما في الخصائص، وشرف المكانة فيقول: "هما طراز حلة الدول، وركنا الملك المشيد عليهما مراتب القول والعمل، ومقلتاه إذا نظر في مهمة، وعضداه إذا حاول دفاع مثلمة، وقمراه إذا تلت وجوه الرعايا في أفقه؛ فلا يكن في أمركم عليكم غمة، ويداه الحقيقتان بهذا الاسم؛ لأن اليد من أسماء القوة، واليد من أسماء النعمة طالما أوجداه من العدم، وسعيا في سياسته على الرأس لا على القدم، وطهر جوانبه إما بنصح نفس أو نضح دم؛ فهذا للإنعام وهذا للإرغام، وهذا للإكراه وهذا للإكرام، وهذا لنصر الأَعْلام وهذا الإِعْلام، وهذا للحَيِل وهذا للحَيِل، وهذا يوم الجود لِلْمَير وهذا يوم البأس للميل، وهذا المبيض لقوام الدهر كالنهار وهذا المسود كالليل".([1])

وهذه الموازنة بين السيف والقلم، والمساواة بينهما لا توحي بتفضيل أحدهما على الآخر، ولم يرد فيها ما يصف القلم أو السيف بخصائص تميزه، بل هي إجمال لما أورده الكتاب الثلاثة في خصائصهما، وما أجروه على لسانيهما من المناظرة والمحاجة.

ولكننا لا نعدم في حديث السيف مفاخرًا القلم في كل رسالة بما له من الخصائص، فهو يفتخر على خصمه عند ابن الوردي ويسهب في ذكر صفاته، ويذكرها مجملة: أن له القضاء والفصل، وفي حِّده الحد بين الجد واللعب، وفعله أشد مضاء من القلم، فهو العدة لقمع المعتدين، ومن أبرز صفاته ومفاخره أنه شرف بحمل الرسول (ﷺ) له، وهو أداة الجهاد؛ تراق الدماء على ظباه وشفراته، ويعني به مالكوه؛ فيرصعون غمده بجواهر كالنجوم.([2])

١- رسالة ابن نباتة، صـ١٢٧.

٢- ينظر رسالة ابن الوردي، صـ١١٩.

ويبلغ من خطره أنه لا يعبث به حامله مع غلاء ثمنه؛ فهو الجوهر الفرد، وجاء مطبوع الشكل داخل الضرب([1])، وهذه الصفات حقيقة واردة في السيف؛ لذا يصوغه بعبارة موجزة بقوله في صدر رسالته: "الحمد لله الذي نزل آية السيف فعظم حرمة الحرم، وآمن صيفه الحيف، والصلاة والسلام على نبيه محمد الذي نفذ بالسيف سطور الطروس، وأخدمه الأقلام ماشية على الرءوس،... فإن السيف عظيم الدولة، شديد الصولة، محا أساطر البلاغة، وأساغ ممنوع الإساغة، من اعتمد على غيره في قهر الأعداء تعب، وكيف لا وفي حده الحد بين الجد واللعب".([2])

ويرد السيف على القلم، مبطلا دعواه بأن له الأدب واللطف، خاليا من الذنب بأن له الصيت والصوت، وغراري لساناً مشرفاً يرتجل غرائب الموت، أنا من مارج من نار...، أنا أجهر وأبهر".([3])

فجعل له صفات علو الشأن والمديح المدبج، ولسانه الحاد الغرير يشرف منه الموت، مصنوع من النار، وله البهاء والإبهار؛ فركز على الصفات المادية المحسوسة في السيف دون المعنوية.

وابن نباتة المصري يجعل السيف مفتخرًا في مناظرته القلم بصفات معنوية أخرى حيث يقول: "الحمد لله الذي جعل الجنة تحت ظلال السيوف... أما بعد: فإن السيف زند الحق الوري، وزند القوي وحده الفارق بين الرشيد والغوي، والنجم الهادي إلى العز وسبيله، والثغر الباسم بتباشير فلوله، والفجر الصادق

١- ينظر رسالة ابن الوردي، ص ١١٩.

٢- السابق، صـ١١٩.

٣- نفسه، صـ١٢١.

إذا ارتجت سحائب النصر، والفخر الساطع إذا أخذ القلوب من الخوف كالعصر به أظهر الله الإسلام وقد جنح خفاء، وجلا شخص الدين الحنيف وقد طمح جفاء، وأجرى سيوله بتلك الأباطح، فأما الحق فمكث، وأما الباطل فذهب جفاء، وحملته اليد الشريفة النبوية، وخصته على الأقلام بهذه المزية، وأوضحت به للحق منهاجًا، وأطلعته في ليالي النقع سراجًا وهاجًا، وفتحت باب الدين بمفتاحه حتي دخل الناس فيه أفواجًا، فهو صاحب المجد القديم والحديث، والفعل الجد إذا فخر، وفخر غيره حديث، والمُمِّهد ربا لا يصلها إلا باعه، ولا تقوم بها إلا أضلاعه، ولا تذعن إلا له قهرا، ولا يسعها إلا صدره، وناهيك بصدر السيف صدرا، طال ما حمدت الهمم سراها عند صباحه، وطارت إلى إدراك المآرب كما يقال بجناحه، وتشعبت لقوائم صوله المنتظر، وخطبت أبكار الفتوح بحده الفكر، وزينت به أيام إلى أن غدت بلمعانه ذات حجول معلومة وغرر".([1])

وجعل ابن نباته صفات السيف ثلاثة: ثلاث صفات للسيف هي القوة، والصلابة المتمثلة فيه بأنه زند الحق، وحده الفارق، ثم هو سبيل تحقيق العزة، فقد أظهر الله به الإسلام بعد أن جنح إلى الخفاء والجفاء، ومنها: عزته بشرف حمل الرسول (ﷺ) له، فكان آلة الجهاد الذي أوضحت به للحق منهاجًا، وفتحت باب الدين بمفتاحه حتى دخل فيه الناس أفواجًا، وهو قائم النصر، وهو آلة تحقيق المآرب.

ويجعل من صفاته أيضًا على غرار اتصافه؛ بالعزة لما له من القوة، والقيام بالنصرة، وتحقيق العز والمجد؛ كونه آلة حمى الذمار، فهو "لا يذل جاره، ولا تجحد آثاره، ولا ينكر إقراره".([2])

١- رسالة ابن نباته، صـ١٣١- ١٣٢.

٢- السابق، صـ١٣٢.

ومن صفاته الحسية: اتخاذه حلية فهو "إما طوق في نحور الأعداء، وإما خلخال في عراقيب النعم"([1]) ومنها أنه "الطويل العمر إذا قصف سواه في ساعة"([2])، ومن صفاته أنه جميل الذكر، حسن السيرة "في أخبار المعمرين، ومقاتل الفرسان"([3]) فله اليُمن والغوث للمنتجع، ودفع المعتدي بشرارة الملتمع، وآلة النصر بلسانه المحمر من أثر الدماء، فهو نعم النصير، كم مد يده فأدرك الطلاب".([4])

ويفخر بصفة معنوية لازمة له، فقد "اتخذه الملوك حرزًا لسلطانها، وحصناً على أوطانها وقطانها"([5]) و "صُحِب فكان في المخاوف نعم الأنيس الصالح... و"فرق بين الظلال واضح".([6])

وهو شديد البأس، وقد طبع على حب الحرب الضروس بنابه إذا لمع في القتال كأنه البرق خوفًا وطمعًا، وإذا أخرج من غمده كأنه الشمس.

وقد أطنب ابن نباتة في وصف السيف كما أطنب في وصف القلم، ويعود ذلك إلى استعماله الترادف اللفظي، والجمل المتوازنة، والترادف بين الجمل، وعذر ابن نباتة في ذلك حبه الشجاعة، ووصفه أدواتها، والسيف أحدها، فأطال في سرده الجمل الواصفة للسيف، ولكنه لم يخرج عما قاله ابن الوردي في

١- رسالة ابن نباته، صـ١٣٢.

٢- السابق، صـ١٣٢.

٣- نفسه، صـ٣٢.

٤- الرسالة صـ١٣٣.

٥- رسالة ابن نباتة ص ١٣٣.

٦- المرجع السابق، ص ١٣٣.

صفة السيف، فالكاتبان قد ركزا على ذكر الصفات المعنوية، وأجملا القول في الصفات الحسية سوى ما ذكراه من الصلابة وكونه حديدًا، ولامعًا، ومشرقًا.

أما القلقشندي فيلخص في بدء حديث السيف ومفاخرته القلم على ذكر جملة من الصفات يفخر بها على خصمه، فيقول: "إن نجادي لحلية للعواتق، ومصاحبتي آمنة من البوائق، ما تقلدني عاتق إلا بات عزيزًا، ولا توسدني ساعد إلا كنت له حرزًا حريزًا، أمرى المطاع وقولي المستمع، ورأيي المصوب وحكمي المتبع، لم أزل للنصر مفتاحًا، وللظلام مصباحًا، وللعز قائدًا، وللعداة ذائدًا"([1]) وهذه الصفات هي مجمل ما ذكر آنفًا في وصف الكاتبين له، ولا ريب أن تأخر القلقشندي عن ابن الوردي، ت ٧٤٥هـ، وابن نباتة، ت ٧٦٨هـ، قد أفاده كثيرًا في حصر الصفات في جمل يمكن أن توصف بالإيجاز، وعدم الإسراف في الإطناب الممل الذي وقع فيه ابن نباتة المصري، والحالان مختلفان، فابن نباتة يريد إظهار براعته في الإنشاء، وابن الوردي والقلقشندي عالمان وكاتبان يختاران من الوصف البليغ ما وضح به المعنى، وأحاط بالمعنى، فلا إفراط في الحلية اللفظية، ولا إسراف في استعمال المحسنات البديعية في الوصف نحو ما صنع ابن نباتة.

وتعقيبًا على ما ورد في مقدمة الرسالة بفخر السيف أنه المطاع وذو الرأي الصائب، والحكم المصوب المتبع، يورد القلقشندي تفصيلا في وصف السيف بعبارة إنشائية، يقل فيها الترادف؛ فيقول على لسان السيف: "إن الملوك لتعدني لمهماتها، وتستنجد بي في ملماتها.... وتتنافس في قنيتي، وتجعلني عرضة لأيمانها...، وتدخرني في خزائنها ادخار الأعلاق، وتعدني أنفس ذخائرها على الإطلاق، فتكللني الجواهر، وتحليني العقود، فأظهر في أحسن المظاهر، أبرز

١- صبح الأعشى ١٤/ ٢٦٧.

للشجعان خدي الأسيل فأنسيهم الخدود ذوات السوالف، وأزهو بقدي فأسلبهم هيف القدود مع لين المعاطف، وأوهم الظمآن من قرب بأنهاري ماء يسيل، وأخيِّل للمغرور من بعد أني جدوة نار فيطلبني على المدى الطويل، ويخالني متوقع الغيث برقًا لامعًا، ويظنني الجائز في الشرق نجمًا طالعًا، فالشمس من شعاعي في خجل، والليل من ضوئي في وجل".([1])

ولم يتجاوز القلقشندي فيما ذكر ما تقدم من صفات السيف في رسالتي ابن الوردي وابن نباتة المصري، ويضيف صفات أخرى لا تعدو كونها صفات حسية لا تقدم السيف على القلم حيث يفاخر السيف القلم أنه صنع من حديد، وقد ذكره الله في القرآن فشرف مقاما إذ قال تعالى: " **وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**"([2])، وفي ذكره ذلك ليوضح قوة السيف وتسلطه على القلم قطعًا وبريًّا، وغلبته له أمرًا ونهيًا.([3])

ويؤيد ذلك بقوله واصفًا السيف بالقتل: "**ذكرتني الطعن وكنت ناسيا، وطلبت التكثر فازددت قلة، وعدت خاسيًا، فكنت كطالب الصيد في عريسة الأسد... فألقيت بيديك إلى التهلكة، فاقنع من الغنيمة بالإياب، وعد الهزيمة مع السلامة من أربح الأكساب؛ فلست ممن يشق غباري، ولا يقابل في الهيجاء ضرمي بناري، فكم من بطل أبطلت حراكه، وكم من شجاع عجلت هلاكه، وكم من صنديد أرقت دمه، وكم من ثابت الجأش زلزلت قدمه**".([4])

١- صبح الأعشى ١٤/ ٢٦٥.

٢- سورة الحديد، آية ٢٥.

٣- ينظر صبح الأعشى ١٤/ ٢٦٦.

٤- صبح الأعشى ١٤/ ٢٧١.

وواضح انتصار القلقشندي للسيف فهو كما وصفه هنا، آلة الطعن، وسلاح الشجاع الصنديد، فليس في القلم من تلك الصفات ما يساويها.

ومن خلال تناول الصفات المذكورة للآلتين – السيف والقلم – في الرسائل الثلاثة، يظهر تركيز الكتاب على الحديث عن السيف وقوته ومادته، وفعله في الرقاب والقتال، وفضله عند الملوك، وفصله في المعارك والنزال، وشدة بأسه وعلو قدره عند مالكيه، فيرفع في أعلى المنازل، ويزين بالحلية، ويفاخر به الأصدقاء والأعداء، ويهدى لما له من فاخر الصناعة وجميل الحلية، فضلا عن إشارة القرآن إليه في محكم التنزيل، وشرف مقامه بحمل الرسول (ﷺ) له، والجهاد به في الفتوح واتخاذ الصحابة له معينا في جهادهم، وبقاء صفاته على مر الزمان.

أما القلم فَوُصِف بخطورة عمله، ورشاقة قده، والحاجة إليه، وهو الأول في فصل النزاع، واعتماد الملوك في مكاتباتهم، وعلو شأن الكتاب به عند ملوكهم، وحسن الانتفاع به دون ضرر يخشى منه، وسهولة حمله، ولونه لون الشباب، فمداده السواد كسواد الشعر في اللمم، وما يلفظ من قول إلا ملك به القلوب، وجلب المطلوب، وبه تكتب العلوم، وتقر الحقائق وتسترد الحقوق، ويستسلم له الأعداء قبل نشوب المعارك، فيه تكتب العهود، وتسجل العقود، ويكتب الصلح وعهود الأمان.

ويلاحظ أن الصفات المذكورة للأداتين رغم خطرهما صفات معنوية، واستعرض فيها الكتاب براعتهم في الكتابة، وبلاغتهم، وقدرات فنهم ومشاركتهم الأدباء في الإدلاء بفنهم في وصفهما.

ونفقد في تلك الرسائل الوصف الحسي الدقيق للسيف والقلم، فقد جافوا هذا الوصف وركزوا على فعل وأثر الأداتين، فهل كان ذلك لإظهار الحاجة إليهما؟

أو أنهم أرادوا إسقاط صفاتهما على حامليهما، ومدحهم بتلك الصفات متخذين من صفات الأداة إشارة إلى علو شأن حاملها.

وعندما ينهي الكُتَّاب وصفهم لهما لم يغلبا أحدهما على الآخر، بل يختما الرسالة بالمصالحة بينهما، وترك الحكم للمقر العلائي عند ابن الوردي، والمقر الشريف عند ابن نباتة، والمقر الزيني عند القلقشندي، وفي ذلك إشارة إلى أنهم لم يريدوا الموازنة بينهما وإنما صنعوا رسائلهم لإظهار براعتهم في الكتابة من جانب، وإرضاء رغبة المقر بتلبية طلبه بوصفهما، وجعلوا ذلك في صورة مناظرة أدبية، وقد أجادوا في هذا الفن البليغ، وهو ما سنعرفه في المبحث الثاني.

المبحث الثاني

الخصائص الفنية في الرسائل الثلاثة

أولا: بناء الرسالة:

عني الكتاب الثلاثة بموضوع السيف والقلم، ولم يكونوا السابقين إليه، ففي الأدب العربي حديث طويل، وموازنات أخرى بينهما، فقد سبقوا بموازنة ابن برد الأصغر الأندلسي، ت ٤٤٠هـ، وهو أول من عقد مفاخرة بين السيف والقلم في الأدب العربي نثرا، ونقلها ابن بسام في الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، كما نجد موازنة أخرى بين صاحب سيف وصاحب قلم يوردها ابن رشيق في العمدة، ويجمع هذه الموازنات الخمسة، رباط الغاية التي أنشئت من أجلها، وهي من الموضوعات التي جدت في الأدب الأندلسي، وفي المشرق بعد القرن الخامس الهجري، وتغيرت موضوعاته وطغت عليه فنون جديدة، وغلبت عليه اللذة الفنية، وإن كانت هذه الخصيصة سمة من سمات النثر من عهد عبد الحميد في القرن الثالث الهجري الذي أدخل في النثر الوصف المادي، والموضوعات غير الديوانية وعني عناية كبيرة بموسيقاه وألف تأليفًا خاصًّا، ولاءم الكتاب والأدباء بين عناصر التعبير من الألفاظ والجمل، وطول الكلمات والجملة، وبين تناسبها مع الموضوع، فضلا عن مراعاة السهولة والوضوح في لغة النثر، وإيثاره للعقل والشعور، وما يثيره في الأذن من لذة؛ لأنه نظم نظمًا موسيقيًّا، وأصبحت هذه الظاهرة الفنية سمة للكتابة الفنية، والكتابة العلمية كالفلسفة وسائر العلوم، فالنثر قد تطور تطورًا كبيرًا في هذا العصر.([1])

١- ينظر: طه حسين: من حديث الشعر والنثر، دار المعارف، القاهرة ط١٢، ٢٠٠٤. صـ٦٣.

أما القرن السابع والثامن الهجريان فقد برز فيهما أعلام من الكتاب أجادوا فن الكتابة، وتنوعت على أيديهم موضوعاتهم، وأكدوا فيها ما أسسه عبد الحميد الكاتب من قيم فنية في الكتابة، ونال حظوة وشيوعًا في عهد ابن العميد، وأبرز تلك القيم منافسة النثر للشعر في اقتحام موضوعاته، وتقريب النثر في أسلوبه من الشعر، من حيث الصورة واللغة الأدبية التي توشحت بالخيال، والإيحاءات، والبعد عن المباشرة التي ظل النثر يختص بها دون الشعر.

ولكن بناء الرسالة وتقاليدها ظلت قائمة في الكتابة في النموذج الكتابي من عهد صدر الإسلام وتطوره في عصر بني أمية، فقد تشكلت البنية الأنموذجية من تقاليد على النحو التالي:

١- **البسملة.**

٢- **توجيه الرسالة إلى المرسل إليه.**

٣- **الاستهلال بالتحميد والتسليم.**

٤- **التخلص إلى غرض الرسالة.**

٥- **موضوع الرسالة.**

٦- **حسن المقطع واختتام الرسالة.**

وقد كانت هذه الرسوم هي التقاليد المرعية في العصر الأموي، فقد حوت كل رسالة "ذكر اسم البسملة إلى ذكر المرسل والمرسل إليه، وإلى تحية المكتوب إليه بالسلام، ثم حمد الله والإقرار بوحدانيته، والصلاة والسلام على رسوله (ﷺ)، ويتبع ذلك الانتقال إلى ما كتبت الرسالة بشأنه".([1])

١- محمد فتوح أحمد: النثر الكتابي في العصر الأموي، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٩م، صـ١٢٤.

وقد التزم الكتاب في الرسائل الثلاثة بتلك الرسوم والتقاليد الفنية في فن الرسالة الأدبية، وجدَّدوا في موضوعاتها، ومن تجديدهم في الموضوع إنشاؤها في وصف الماديات كالسيف والقلم، وجعلها أسلوبًا للمناظرة والمحاجة، وهو باب من النثر لم يسبقهم إليه إلا مناظرة ابن برد الأصغر، ت ٤٤٠هـ في الأندلس.

مقدمة الرسالة:

افتتحوا رسائلهم بمقدمات اشتملت على استفتاح موضوع الرسالة والحمد لله، والتسليم، والثناء على الرسول (ﷺ)، وضمنوا ذلك الإشارة إلى الغاية من إنشاء الرسالة.

وقد لا يلتزم الكاتب بهذا الترتيب، فابن الوردي في رسالته عن السيف والقلم قدم سبب إنشاء الرسالة في عتبة النص، ولم يبدأ رسالته بالرسوم المقررة لها، فبدأها بقوله: "لما كان السيف والقلم عدتي العمل والقول، وعمدتي الدول فإن عدمتهما دول فلا حول، وركني إسناد الملك المعرب عن المخفوض والمرفوع، فكرت أيهما أعظم فخرًا وأعلى قدرًا، فجلست لهما مجلس الحكم للفتوى، ومثلتهما في الفكر حاضري الدعوى، وسويت بين الخصمين في الإكرام، واستنطقت لسان حالهما للكلام".([1])

ثم يبدأ بالخطاب الوصفي من الأداتين، فيبدأ بالقلم وينبي محاجته السيف بخطبة يلتزم فيها ببناء الخطبة التي تشبه الرسالة في بنائها وهيكلها، فيفتتحها بالحمد والتسليم، والثناء على الرسول (ﷺ) وصحبه الكرام، ثم يتخلص إلى موضوع الخطبة ويقول على لسان القلم: "بسم الله مجراها ومرساها، والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها، أما بعد حمد لله بارئ النسم، الذي علم بالقلم...،

١- رسالة ابن الوردي، صـ١١٨.

والصلاة على نبيه القائل (جفت الأقلام) وعلى آله وصحبه أعلم المعارف وأعرف المعالم... فإن للقلم قصب السبق..."([1])

والمزج بين الرسالة والخطبة أمر سائغ في النثر، حيث يتشابه الفنان في بنائهما وأسلوبهما، وإن اختصت الخطبة بإثارة العواطف واستمالة القلوب، وخاطبت الرسالة العقل، وامتازت بمنطق الفلسفة، وتركز الخطبة على التوجيه والخطاب على الجماهير عامة، بينما تختص الرسالة بطائفة محددة من المخاطبين، فتكون لغة الخطاب فيها أكثر عمقًا، وجدلية من الخطبة.

ويلحظ في مقدمة ابن الوردي أنه استأنف حديثه عن الإشارة الصريحة إلى غرضه، والدخول في موضوعه دون تمهيد، فلم يبدأها بالمطالع المفتتحة أغلب الرسائل، وأجل تلك المقدمة برسومها إلى حديث القلم وكأنه جعل خطبة القلم هي الرسالة، وفيها يستعرض مهاراته القولية، وبراعته الكتابية.

ويسير ابن نباتة المصري على الطريقة ذاتها بتمجيد المرسل إليه، وسبب إنشاء الرسالة ويقدم له التجلة والتعظيم بذكر جملة من المبالغات الوصفية في الإشارة به منها: "يقبل الأرض بالمقر لا زالت أقلام النعم ساجدة بأمره، وسيوف النقم راكعة في محارب الأفئدة بنصره...، وينهي بعد ولاء غير مختلف وينهي أن من عادات الخدم الذين فصحت النعماء ألسنتهم، وصوب إلى اقتناص أوابد المعاني أسنتهم... فكان مما خطر للملوك بارحة أمسه وهجس في نفسه، وعرضت عليه جياد معانيه بالعشي... ذكر السيف والقلم اللذين هما طراز حلة الدول، وركنا الملك المشيد عليهما مراتب القول والعمل... ويداه الحقيقتان... وسعيا في سياسته على الرأس لا على القدم، وطهرا جوانبه إما

١- رسالة ابن الوردي، صـ١١٨.

بنصح نفس وإما بنضح دم... ثم إن الملوك فكر في أيهما أتم نفعًا وأرجح صنعًا..."([1])

وبعد هذه المقدمة في بيان سبب اختيار موضوعه، الخالية من مراعاة تقاليد الافتتاح للرسائل، ابتدأ يخطب القلم في خطبة روعي فيها مراسم الخطابة، وأصولها في ابتدائها بالحمد ثم الصلاة على الرسول (ﷺ)، ويتلوها بالتخلص "**أما بعد**"؛ ليدلف إلى موضوعه المحاجة في فضله على السيف.

وقد تبين أن هذا الرسم في أسلوب الرسائل والمزج بين الفنين –الرسالة والخطبة– لم يلتزمه الكُتَّاب الثلاثة، حيث عمد إليه ابن الوردي ومعاصره ابن نباتة المصري، ولا نجده عند القلقشندي، الذي بدأ رسالته بالمنهج التقليدي لبناء الرسالة، فرتبها أولا بالحمد ثم الصلاة على النبي (ﷺ)، وصحبه الذين قام بهما الإسلام، ثم يتلخص إلى موضوع رسالته بقوله: وبعد؛ فإنه ما تقارب اثنان في الرتبة إلا تحاسدا، ولا اجتمعا في مقام الرفعة إلا ازدحما على المجد وتواردا، ورام كل منهما أن يكون هو الفائز بالقدح المعلي...

ولما كان السيف والقلم قد تدانيا في المجد وتقاربا، وأخذ بطرفي الشرف وتجاذبا؛ إذ كان قطبين تدور عليهما دوائر الكمال... وتطرقت إليهما عقارب الشحناء، ودبت وتوقدت بينهما نار المنافسة وشبت، وأظهر كل منهما ما كان يخفيه فكتب وأملى..."([2])

وهكذا سار القلقشندي في رسالته بسلاسة تخلصه من المقدمة إلى الموضوع، وقد استطاع أن يحكم بناءها ويحكم ترابط أجزائها، وتلاحم مقراتها.

١- رسالة ابن نباتة، صـ.١٢٧.

٢- القلقشندي: صبح الأعشى ١٤/ ٢٦٤-٢٦٥.

التخلص:

برع الكتاب الثلاثة في طريقة تخلصهم من غرض إلى آخر، وانتقالهم من جزء إلى ما يليه، مما أدى إلى تلاحم الأجزاء داخل الرسالة والواحدة، وإن فضل القلقشندي زميليه، وقد ساعده على ذلك أسلوبه في كتابة الرسالة عمد إلى الإيجاز، والتقليل من الفضول، وترادف الجمل، وعبر عما يريد بجمل قصيرة متوالية دون إطناب في الوصف، أو استطراد أو حشو.

وحسن التخلص جزء من النص يحوي بعض أفكاره، فهو "أداة يأخذ الأديب معنى من المعاني بينما هو فيه إذا أخذ في معنى آخر غيره، وجعل الأول سببًا له، فيكون بعضه آخذ برقاب بعض من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلامًا آخر بل كلامه كأنما أفرغ إفراغًا، إذ إن القطع عيب في الكلام".([1])

ويظهر عند ابن الوردي حسن التخلص في انتقاله من مقدمة الرسالة إلى وصف المفاخرة بحديث القلم عن خصائصه بقوله: "فجلست لهما مجلس الحكم للفتوى ومثلتهما في الفكر حاضري الدعوى، وسويت بين الخصمين في الإكرام، واستنطقت لسان حالهما للكلام"([2]) ثم تخلص إلى آخر الرسالة وخاتمتها بقوله: "قال الحكم بين السيف والقلم، فلما رأيت الحجتين ناهضتين،

١- حسن إسماعيل خلف: رسائل المهلب بن أبي صفوة، دراسة أدبية فنية، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، العدد٢، الملجد ١٣، ٢٠٠٥م، صـ٧٠.

٢- رسالة ابن الوردي، صـ ١١٨.

والبيتين متعارضين... لطفت الوسيلة، ودققت الحيلة حتى رددت القلم إلى كنه، وأغمدت السيف فنام ملء جفنه..."([1])

وعند ابن نباتة المصري جاء التخلص من المقدمة إلى الموضوع بعد ذكر منزلتهما عند المقر العلائي، وما لها من الأثر في إقامة الدول، وحفظ الممالك، فهي طراز حلة الدول، وركنا الملك المشيد عليهما مراتب القول والعمل، فقال متخلصًا إلى حديثهما في المفاخرة: " ثم إن المملوك فكر في أيهما أتم نفعًا وأرجح صنعًا... فمثلهما المملوك في ذهنه، واستخبر خيال تخيله فكأنهما حيال جفنه، وأطلقهما في سوار المحاضرة، وأرثّ بينهما بالفكرة القادحة نار المحاورة، واستنطق حال المفصح الصامت... برز القلم بإفصاحه، ونشط لارتياحه... والتفت إلى السيف فقال..."([2])

وقبل ختام الرسالة هيأ ابن نباتة له بحسن المقطع بتخلص بديع ليفهم القارئ انتهاء المفاضلة بينهما، وفصل المناظرة بردها إلى الحكم العدل المقر العلائي المخاطب بهذه الرسالة، فيقول متخلصًا إلى ذلك بقوله على لسان السيف: "ثم إنك بعد ما مضى من القول المديد والمجادلة التي عز أمرها على الحديد، أقررت أننا للملك كاليدين، ولم تقر أين اليمين، وفي آفاقه كالقمرين... ولا يفرج كربي، ولا يفرغ قلبي إلا أن يحكم بيننا من لا يرد حكمه، ولا يتهم فهمه، فيظهر أينا المفضول من الفاضل..."([3])

أما القلقشندي فجعل تخلصه بعد مقدمة الرسالة التي حوت التحميد والتسليم والصلاة على الرسول (ﷺ)، والثناء على أصحابه، ثم التمهيد بالإشارة إلى

١- رسالة ابن الوردي، صـ١٢٢.

٢- رسالة ابن نباتة المصري، صـ١٢٧- ١٢٨.

٣- السابق، صـ٤٦.

المناظرة نابعة عن تنافس الأشراف فيما يتقارب فيه الاثنان، ورام كل واحد منها الفوز والتتويج، وينتقل بعد ذلك إلى المفاخرة بينهما بقوله: "ولما كان السيف والقلم قد تدانيا في المجد وتقاربا... إذ كانا قطبين يجنى العز من أغصانهما، جر كل منهما ثوب الخيلاء فخرا فمشى وتبختر... وتوقدت بينهما نار المنافسة وشبت، وأظهر كل منهما ما كان يخفيه فكتب وأملى..."([1])

وعند ختام رسالته أوحى بالختام لها؛ فقال على لسان القلم متخلصًا من طول المراء: "قد طالت بيننا المجادلة، وكثرت المراجعة والمقاولة، مع ما بيننا من قرابة الشرف، وأخذ كل منا من الفضل بطرف... فقال السيف: لقد رأيت صوابًا، ورفعت عن وجه المحجة نقابًا، وسريت أحسن مسرى وسرت أجمل سير، وصحبك التوفيق فأشرت بالصلح، والصلح خير... ثم قالا: لابد من حكم يكون الصلح على يديه ..."

ويلحظ مما تقدم أن الكتاب الثلاثة أتقنوا حسن التخلص والانتقال من مقدمة الرسالة إلى موضوعها، ثم من ختام المفاخرة إلى ختامها...، وقد كانوا بارعين في ذلك، وساروا فيه على نهج السابقين عليه في مراعاة حسن الختام والمقطع؛ إذ هو آخر ما يقع في مسمع القارئ، ويجب الإحسان فيه كالإحسان في المقدمة. فإن النقاد اشترطوا للرسالة حسن الخاتمة؛ لأن الخاتمة "آخر ما يبقى في الأسماع؛ ولأنها ربما حفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال، فيجب أن يجتهد في رشاقتها ونضجها وحلاوتها وجزالتها"([2])

١- صبح الأعشى، ١٤/ ٢٦٤.

٢- ابن أبي الأصبع: تحرير التحبير، تحقيق، حفني شرف، صـ٦١٦.

ويحرص الكُتّاب على أن تحمل خواتم رسائلهم ما يؤكد عواطفهم وسنرى ذلك جليًّا في خاتمة الرسالة في وصف السيف والقلم.

غرض الرسالة:

موضوع الرسالة هو غرضها الذي أنشئت من أجله، والموضوع هنا هو المناظرة بين السيف والقلم، والمفاخرة القائمة على المحاجة، وقد اتخذت في الرسائل الثلاثة منهجًا محددًا يتضح من خلال التأكيد على الأفكار الرئيسة الآتية:

أولا: الثناء على السيف والقلم وبيان فضلهما:

حوت كل رسالة في افتتاحها حديثًا عن السيف والقلم، وما لها من الأثر في الدول، وحاجة الملوك إليهما، وشرفها بذكرهما في القرآن الكريم، وانفرد السيف بشرف حمل الرسول (ﷺ) له، فيستهل ابن الوردي رسالته بما قدمناه سابقًا في الافتتاح بالإشارة إلى أن "**السيف والقلم عدتي العمل والقول وعمدتي الدول**"([1]) ثم يعرض المفاخرة وحديثهما، ويتخذ السرد القصصي والحوار أداة للمناظرة، ويضمن ذلك الحجج والبراهين كل منهما، ويسوق بيانه ومعانيه في أسلوب سردي تتابع فيه المعاني بسلاسة ومنطقية دون التواء أو تعقيد.

ويلجأ الكتاب –ابن الوردي والقلقشندي– إلى سرد حواراتهم بصورة مباشرة وإيجاز، ويخالفهما ابن نباته المصري الذي يبالغ في استخدام المترادفات في الألفاظ والجمل، والتكرار في المعاني والصور، وإن لم يخرج في الإطار الموضوعي عما ورد عند صاحبيه.

١- رسالة ابن الوردي، صـ١١٨.

ثانيا: الوصف:

وهو موضوع المناظرة، فبرغم من أنهما جعلوا الموضوع العام للرسائل هو المناظرة، إلا أنهم عقدوها لوصف السيف والقلم، وذكر فوائدها، وبيان أثرهما في الممالك، وأهميتهما عند الملوك، وفضلهما عند أهل كل صناعة.

وقد جعل الكتاب الحديث عن تلك الصفات دائرًا على لسان الأداتين؛ ومن ذلك ما جاء في رسالة ابن الوردي على لسان السيف في محاجته القلم: "فإن السيف عظيم الدولة، شديد الصولة، محا أسطر البلاغة، وأساغ ممنوع الإساغة؛ من اعتمد على غيره في قهر الأعداء تعب، وكيف لا وفي حده الحد بين الجد واللعب، فإن كان القلم شاهدًا فالسيف قاضي، وإن اقترنت مجادلته بأمر مستقبل قطعه السيف بفعل ماضي به ظهر الدين، وهو العدة لقمع المعتدين ..."([1])

فابن نباته يقدم وصف القلم في ستة وعشرين سطرًا من النثر البديع منها قوله: "فإن القلم منار الدين والدنيا، ونظام الشرف والعليا... ومفتاح باب اليمن المجرب إذا أعيا... وأنملة الهدى المشيرة إلى ذخائر الدنيا والآخرة، به رسم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسنة نبيه (ﷺ) التي تهذب الخواطر الخواطل([*]) ..."([2])

ويطنب في حديثه عن القلم، ونختار منها العبارات الآتية: إن نظمت فرائد العلوم فإنما هو سلكها... وإن اجتمعت رعايا الصنائع فإنما هو إمامها المتلفع

١- رسالة ابن الوردي، صـ١١٩.

*- الخواطل: الخطل: هو الخفة والسرعة، والخاطل: الأحمق العَجِل، واستعيرت للعقل. اللسان مادة (خطل).

٢- رسالة ابن نباتة، صـ١٢٨.

بسواده، وإن زخرت بحار الأفكار فإنما هو المستخرج درها من ظلمات مداده... وهو لسان الملوك المخاطب، ورسيلها الفتوح والخاطب، ... وأعان القصاد، وعقد لإدراك المعاني بالمرصاد..."([1])

وإطناب ابن نباتة في وصفه، أو وصف الحوار بين السيف والقلم يسير فيه على طريقته المأثورة عنه القائمة على كثرة السجع وطلب ترادف الجمل والألفاظ، والإكثار من إيراد الأمثال والحكم، والتوشيح بالشعر وتناصه مع القرآن الكريم والسنة النبوية، وموروث الثقافة الإسلامية.

ثالثا: تنوع مادة الرسالة:

لم تتخذ رسالة وصف السيف والقلم عند ابن الوردي وابن نباتة المصري، ورسالة "حلية الفضل وزينة الكلام" عند القلقشندي، عرض موضوع الرسالة الرئيسي مطلبًا أساسيًّا تدور في فلكه؛ وإنما اجتهد الكتاب الثلاثة إلى تضمينها إشارات متنوعة من المعارف، والفنون، وإظهار المخزون الثقافي لكل منهم، والقدرة على استحضار ذلك المستوى المكون الثقافي في أثناء الرسالة، فهو لا يصف السيف أو القلم لذاته؛ وإنما أراد إلى الفخر بما يملكه من العلم، والمعرفة والمادة التي يوظفها في الوصف، ويفسر النص أحياناً لجعلها جزءًا من لوازم الوصف ومادته على نحو قول ابن نباتة مفاخرة القلم السيف "فهو صاحب فضيلتي العَلَم، والعِلم، وصاحب ذيل الفخار في الحرب والسلم، لا يعاديه إلا من سفه نفسه، ولبس لبسه، وطبع على قلبه، وفل الجدال من غربه، وخرج في وزن المعارضة عن ضربه..."، ونحوها قوله "وكيف يعادي من إذا كرع في

١- رسالة ابن نباتة، صـ١٢٨- ١٢٩.

نفسه ([1]) قيل "**إنا أعطيناك الكوثر**"([2]) فإذا ذكر شانئه السيف فقال "**إن شانئك هو الأبتر**"([3])

ويصف السيف بعد مفتتح خطبة السيف بقوله: أما بعد: فإن السيف زند الحق الوري، وزنده القوي، وحده الفارق بين الرشيد والغوي، والنجم الهادي إلى العز وسبيله، والثغر الباسم بتباشير فلوله، والفجر الصادق إذا ارتجت سحائب النصر، والنجم الساطع إذا أخذ القلوب من الخوف كالعصر..."

وهذا الترادف المفضي إلى الإسراف في العبارة، واللفظية التي تجعل من النص مادة لفظية جوفاء ليست من أصول المناظرة التي تقوم في أسلوبها على إحكام العبارة، ووجازتها، وإصابة الغرض، والبعد عن الإسراف في الجماليات اللفظية.

فقد نص العلماء في آداب المناظر "أن يحترز من الإيجاز والإطناب وعن استعمال الألفاظ الغريبة، وعن المجمل"([4])... وفيها "لا تطل الحديث... وحاول الاختصار الذي لا يخل بالمعنى".([5])

ويقرب من هذا التجاوز في أسلوب المناظرة ما صنعه ابن الوردي، حيث أطنب في مواضع من رسالته، ولكنها قليلة قياسًا بما ورد عند ابن نباتة، وأحسن القلقشندي في حبكه المناظرة في قياسها الموضوعي، والبعد عن

١- كرع في نفسه: وضع رأسه في المداد، (ابن دريد الجمهرة (نقس).

٢- سورة الكوثر، آية ١.

٣- سورة الكوثر، آية٣.

٤- طائش كبري زاده: الآداب في علم آداب البحث والمناظرة، تحقيق: حايف النبهان، الظاهرية، الكويت، ٢٠١٢، صـ٤٢.

٥- المرجع السابق، صـ٤٢.

الإطناب في الصياغة اللفظية وإن كانت حسنة في بيانها الأدبي، وبراعتها الأسلوبية كما شاهدت عند ابن نباتة.

ولا يؤاخذ ابن نباتة على مادة الفن في صنع رسالته وإن لم نوافقه (رحمه الله) في إسرافه بالعبارة الأدبية، مما أوقع المناظرة في التشتت وتباعد أجزائها في متن الرسالة.

رابعا: الاقتباس:

ويتفق الكتاب الثلاثة على الاقتباس من القرآن الكريم، والحديث النبوي، ومأثور الشعر؛ فلا تخلو رسالة من الرسائل الثلاثة من آيات قرآنية مقتبسة كما شاهدنا في نص ابن نباتة السابق(١)، والآيات نفسها يقتبسها ابن الوردي في وصف السيف حيث قال في مطلع حديث **السيف** " **الحمد لله الخافض الرافع** " ، "**وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع**"...(٢) وفي حديث القلم يقتبس قوله تعالى "**الذي علم بالقلم**"(٣)؛ أما الحديث النبوي، فأفاد منه الكتاب في تأييد ما يوردونه من أوصاف، ومفاخر الأداتين؛ فابن الوردي يورد حديث "**جفت الأقلام**"(٤) في أثناء فخر القلم يورد ذكره في كلام الرسول (ﷺ) وقد يفيد الكاتب من القرآن الكريم والحديث دون ذكر نص الآية، أو الحديث كما جاء في حديث ابن الوردي قال القلم: "أما أنا فابن ماء السماء، وأليف وحليف الهواء، وأما أنت فابن للنار والدخان، وباتر الأعمار، وخوان الإخوان، تفصل ما لا يفصل،

١- رسالة ابن نباتة: صـ١٢٧ – ١٢٨، وقد اقتبس آيتين من سورة الكوثر في وصف القلم، وآية من سورة الحديد " وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس الآية ٢٥.

٢- سورة الحديد، آية ٢٥.

٣- سورة القلم، آية ٤.

٤- مسند الإمام أحمد ١/ ٢٩٣، ٣٠٣.

وتقطع ما أمر الله به أن يوصل، لا جرم إن سمر السيف، وصقل قفاه، وسقي ماءً حميمًا فقطع أمعاءه يا غراب البين، ويا معتل العين"(١) ، ويقتبس القلقشندي الآيات ذاتها في متن رسالته، وكأن مادة الاستشهاد واحدة، ويشير التوارد في الشواهد القرآنية والحديثية على اعتماد القلقشندي على رسائل سابقيه، واتخذ مادتها مصدرًا لرسالته؛ فبين الرسائل الثلاثة تماثل في المادة والمنهج، وهذا خير دليل على تداول هذه المادة بين طائفة الكتاب والأدباء ؛ حيث قال: "ويا ذا الوجهين، كم أفنيت، وأعدمت، وأرملت، وأيتمت؟!

فالجمل "وسقي ماءً حميما فقطع معاه"، "وتقطع ما أمر الله به أن يوصل" مقتبسه من جمل الآيات القرآنية (٢) وقوله يا ذا الوجهين من قوله (ﷺ) "وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه"(٣) وقد أحسنا في هذا التوظيف الذي يدخل في باب التناص، حيث يقوم على "تداخل النصوص وتقاطعها في النص الواحد بإدراج التراث في النص، أو إدراج النص في التراث من خلال التجاوب، والتحاور، وإعادة الاستنطاق من خلال الوعي التراثي في نسيج جديد يصل منه الكاتب إلى توليد بنى جديدة"(٤) وهو من جهة أخرى لا يؤلف بنية مغلقة؛ وإنما تشغله وتنشط فيه نصوص أخرى على أساس أن كل نص هو استيعاب وتحويل لعدد كبير من النصوص التي يستهلها ويبني عليها، سواء كانت أدبية أو غير أدبية"(٥)

١- رسالة ابن الوردي، صـ١٢٠.

٢- الأولى من آية ١٥ سورة محمد، والثانية سورة الرعد آية ٢٥.

٣- صحيح البخاري.

٤- عزة سبل: علم لغة النص، صـ٧٥.

٥- السابق، صـ٧٥.

ويمتاز الأعلام الثلاثة بمكون ثقافي وعلمي عالي الكثافة، ويظهر من نصوص الرسائل اتساع موارد المادة الأدبية والعلمية لديهم، فغرقت رسائلهم في بحر علومهم، وغابت أحياناً المناظرة في خضم ذلك وعند ابن نباتة المصري خاصة.

وكما مزج الكاتب النثر بالقرآن والحديث فقد قرن بين الشعر والنثر، وجاءت الرسائل بعدد من الأبيات الشعرية في أثناء الحديث على لسان السيف، والقلم، وهي صورة متكررة، وظاهرة فنية فيها؛ ولذا سأقتصر على ذكر شاهد واحد منها كقول ابن نباتة في مفاخرة القلم، حيث يورد قول الألوسي في وصف القلم:

قلم يفل الجيش وهو عرمرم ** والبيض ما سلت من الأغماد

وهبت له الآجام حين نشابها ** كرم السيول وصولة الآساد(١)

ولم تسعفنا المصادر بمعرفة مصادر الشعر الوارد في رسالة ابن نباتة سوى القليل منها، ولعله كان ينشئ الشعر في أثناء إنشائه الرسالة، وهذا ما عرفه تاريخ الأدب العربي وشاع لدى الكتاب في عصوره المختلفة، وهذا يدخل في باب تداخل الأجناس الأدبية، والتفاعل النصي بين النصوص الأدبية. (٢)

أما الأمثال والحكم فكانت حاضرة في مضمون الرسالة، وكونت عنصراً بنائيًّا فيها، حيث أورد الكتاب الأمثال في أثناء مفاخرات السيف، والقلم، وضمنوها معاني في المناظرة كما في حديث القلقشندي عن السيف، حيث اقتبس

١- الحموي: معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب، بيروت، ١٤١٤ هـ، صـ٦ / ٢٧٣٧.

٢- نهلة فيصل الأحمد: التفاعل النصي، التناصية بين النظرية والمنهج، كتاب الرياض، مؤسسة اليمامة، الرياض، ١٤٢٣ هـ، صـ٢٧٩.

المثل "كمبتغي الصيد في عريسة الأسد"([1])، والمثل "ذكرتني الطعن وقد كنت ناسيا"([2])

وتزيد عناية القلقشندي عن صاحبيه باقتباس الأمثال، ويكتفي ابن الوردي، وابن نباتة بإيراد معاني الأمثال في سياق الحديث دون نص على عبارتها، أو الإفادة منها مباشرة، وهذا أيضًا يدخل فيما أشرت إليه سابقًا في حدوث ظاهرة التفاعل النصي في الرسائل وتعد بذلك خير مثال لهذا الفن، ويحسن دراستها على ضوء هذا المنهج النقدي لإبراز جهود السلف في إبداعهم النص الأدبي.

خامسًا: الخصائص الأسلوبية:

تعتمد كتابة الرسالة فنيًّا على "براعة الأديب وثقافته، وتمكنه من أدوات الكتابة التي أهمها الوقوف على أسرار اللغة وطرق استخدامها، وحسن توظيفها لخدمة مهمته".([3])

وعني الكتاب من لدن عبد الحميد الكاتب وابن المقفع بالكلمة واللفظ المفرد، وتبعًا لذلك نجد أن النقاد اهتموا بدراسة اللفظ، والتركيب، ودرس النقاد تبعًا لذلك جماليات الخطاب الأدبي، وما يحسن في الرسالة خاصة من الألفاظ، وحددوا معايير اللفظ الجيد، والتركيب الحسن.

١- أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال، ت محمد أبو الفضل، دار الفكر، بيروت، ٢٠١٠، ١٥١/٢.

٢- اليوسي، زهرة الأكم في الأمثال والحكم، ت محمد حجي، الشركة الجديدة، ١٤٠١هـ، ٢٧٠/١.

٣- نبيل رباح: نقد النثر، صـ٢٩٢.

وفي الرسائل الثلاثة التي بين أيدينا نجد الكتاب الثلاثة بالغوا في تجويد رسائلهم، وأظهروا فيها براعتهم الأدبية، وأحسنوا في تأليفها، فنالت حظًّا وافرًا من الإجادة والإتقان سواء في الألفاظ، أو الصور، أو الإيقاع؛ ولذا سنلقي الضوء على بعض الظواهر الأسلوبية المميزة لتلك الرسائل، ولا تفي حدود البحث في استيفاء كل الخواص الأسلوبية حيث يتطلب الإيجاز، والتركيز، ولعل مستقبل الزمان يسمح بتناول هذه القراءة الأدبية بشكل موسع واف.

وسأتناول هذه الظواهر على النحو الآتي:

الألفاظ والتراكيب:

يشترط في ألفاظ الرسالة الوضوح والجزالة، ومناسبة الغرض، فالرسائل الاجتماعية تقتضي أسلوبًا أدبيًّا تمتزج فيه الألفاظ الرقيقة، والألفاظ الجزلة، يتجاوز مضمونها ومعانيها قريبة التداول، والمعاني الفلسفية العميقة، وهذا ما نلحظه في رسائل مناظرة السيف والقلم، فقد جمع الأدباء فيها بين اللفظ السهل القريب الواضح نحو قول ابن نباتة "أن يقدموا بين أيدي ساداتهم تحف أفكارهم الحسنة، وخواطرهم المتفننة، ويطالعوا بما يدل على صحة الآراء فيهم ".([1])

ويأتي في موضع آخر من رسالته بالألفاظ الجزلة والجمل القوية المحكمة لتناسب المقام المسوقة فيه نحو قوله: "وطهرا جوانبه إما بنصح نفس، وإما بنصح دم، فهذا للإنعام، وهذا للإرغام، وهذا للإكراه، وهذا للإكرام...."([2])، وقوله "وسنة نبيه (ﷺ) التي تهذب الخواطر الخواطل"([3])، ومثل هذه الألفاظ

١- رسالة: صـ١٢٦.

٢- السابق، صـ١٢٧.

٣- نفسه، صـ١٢٨.

كلمات برود الألفاظ، أسرة الكتب، وقوله "عضت الحرب الضروس بنابه، وقذفت شياطين القراع بشهبه".([1])

أما رسالة القلقشندي فتميل في جملتها إلى الألفاظ الجزلة القوية، وذلك نظرًا لما اختار لها مؤلفها من الإيجاز المحكم، واقتضاب العبارة، وترك الإفراط في الإطناب، والترادف، فجاءت الألفاظ متسمة بالدقة المتناهية، وملائمة للمعنى في بسطه، واقتضابه فهو يقول: "فسمت بهم على سائر الدول، وكرعت في دماء الكفر سيوفهم، فعادت بخلوق النصر لا بحمرة الخجل"، فالفعل "سمت" ملائم للنصر، ولنضرة الصحابة الإسلام، والفعل "كرعت سيوفهم" لاءم انغماس السيوف في رقاب الأعداء، كأنها تكرع في الإناء للشرب، ويقول في موضع آخر عن القلم والسيف "ويستضاء بهما في حنادس الليالي"؛ فالحندس شدة الظلمة، وناسب استخدامها هن لإيحائها البعيد في السياق. ويلاحظ في الرسائل الثلاثة غياب الغريب إلا ما ندر وجاء متفرقًا، وهذه تعد حسنة للكتاب الثلاثة؛ ‘إذ لم يغربوا في أساليبهم، وجاءت ألفاظهم قريبة واضحة، وذلك كما تقدم بعد من شروط جودة الرسائل الأدبية.

أما التراكيب فإن الكتاب الثلاثة اختاروا الجمل المتنوعة الاسمية والفعلية، وفي الفعلية مزجوا بين المضارعية، والماضوية وهي الأكثر حضورا في النص، وغلبت الجملة الخبرية على الإنشائية، وذلك أمر طبيعي في رسائل أنشئت من أجل الوصف، وهو يقوم على الإخبار والتأكيد على ثبوت الأمر واستقراره.

١- رسالة، صـ١٣٣.

ويلاحظ في التراكيب السلاسة، والاقتران، والتواؤم، والبعد عن التعقيد؛ ونأخذ شاهدًا على ذلك جملة من قول ابن الوردي في حديث السيف للقلم: يا ابن الطين؛ ألست ضامرًا، وأنت بطين؟ كم جريت بعكس، وتصرفت بمكس، وزورت، وحرفت، ونكرت، وعرفت، وسطرت هجوًا وشتمًا، وخلدت عارًا وذمًّا، أبشر بفرط روعتك، وشدة خيفتك إذ قست بياض صحيفتي بسواد صحيفتك... فألن خطابك فأنت قصير المدة، وأحسن جوابك فعندي حده ...، وأقلل من غلظتك وجبهك..."([1])

فجاء بالجمل الخبرية، والإنشائية وجعل كل نوع يلائم موضعه، فالنداء "يا ابن الطين" والاستفهام "ألست ضامرًا" ناسبًا مفتتح الخطاب، والأفعال الماضية لاءمت الخبر والسرد للأخبار متوالية، ويغلب على الرسالة، وأختيها الطابع ذاته، إلا أن ابن نباتة انفرد بزيادة الإيراد والتنوع للجمل، ولكنها زيادة من باب إظهار البراعة لا غير، وليس فيها زيادة معنى، ووقوع الاستطراد أو الحشو أحيانًا.

وظاهرة ثالثة في الألفاظ والتراكيب تبدو جلية في النصوص الثلاثة، وهي ظاهرة التكرار، وهو جلي عند الكتاب الثلاثة، وينحصر غرضه في التوكيد، وقد أشرت في مبحث المضمون عن هذا الجانب عند ابن نباتة، حيث جعل همه أن يأتي بالجمل المترادفة المعنى، وتكرارا للفكرة في صورة موجزة أتى به في مواضع محددة؛ وذلك نظرًا لوجازة خطابه في الرسالة ومن ذلك قوله: "ولما كان السيف، والقلم قد تدانيا في المجد وتقاربا، وأخذا بطرفي الشرف وتجاذبا؛ إذ كانا قطبين تدور عليهما دوائر الكمال، وسعدين يجتمعان في دوائر

١- رسالة ابن الوردي، صـ١٢١.

الاعتدال"([1]) ويلاحظ تكرار المعاني هنا، وتأكيدها بالعبارات المتكررة لفظا، والمتقاربة معنى ونحوه قوله "ومعقلها الأمنع، وحرزها الحصين، وعقدها الأنفس، وجوهرها الثمين، وتلادها العليم بأحوالها، والجدير بمعرفة أقوالها وأفعالها...".([2])

ويكرر القلقشندي العبارات التي تحمل معنى واحدا تأكيدًا لفكرته، واستعراضًا لبراعته الكتابية، وسعة معجمه اللغوي.

والأمر ذاته عند ابن الوردي في جملة سمات الجملة، وظاهرة التكرار، ولكن ابن نباتة يفوقه في سعة المعجم اللغوي أو إظهار القدرة على التكرار والترادف في الكلمات والجمل.

سادسًا: الصورة:

الفن القولي شعرًا أو نثرًا، هو تعبير حي يمثل قدرة الأديب على إيصال تجربته، وموضوعه إلى المتلقي مستخدمًا في ذلك أدوات التشكيل والتصوير الفني الملائمة للسياق فيعمد أحيانًا إلى اللغة المباشرة، ويتجاوزها إلى اللغة التخيلية، ليوجد مستوى جديدًا للتعبير فيلجأ إلى المجاز، أو الصورة البيانية، وقد يمزج ذلك بتلوين الخطاب بالمحسنات البديعية ذات الأثر القوي بإيحاءاتها في تكوين الصورة العامة للنص، وإعانة الأديب في التعبير عن مكنونات نفسه باللغة المتضادة، أو الرمز بالتورية، أو تحسين التلقي عند المستقبل بالمحسن المعنوي في تقابله مع ضده أو بيان المعنى بأسلوب الحكيم وغيره.

١- صبح الأعشى، ١٤/ ٢٦٤.

٢- السابق، ١٤/ ٢٧٢.

والصورة الفنية باعتبارها أداة المبدع، ونظرًا لما تتيحه من إمكانات البلاغة بالتشبيه، والاستعارة، والكناية لتكوين التشابه والتماثل مما يولده الحس والعقل والخيال؛ تعد أبرز العوامل الفنية التي تلفت نظر القارئ للنص؛ لذا اهتم النقاد والبلاغيون بتحديد دلالات الصورة، وتعريف محدداتها، وأدواتها، ووقفوا على أثرها في العمل، وإن لم يعرف النقد العربي القديم الصورة بالتعريفات المعاصرة لها، ولكنه أدرك أثرها في البيان، والدقة في التصوير، وجمالياتها في النص، فتحدث القدماء عن التشبيه والاستعارة والكناية وغيرها من مكونات الصورة.

والجاحظ هو أول من أدرك أثر الصورة في الصناعة الفنية من خلال وقوفه عند اللفظ، والمعنى في النص، فهو يعلل ظاهرة الجودة وسر تفوق بعض النصوص على غيرها، ويعيد ذلك إلى قوة النسج والإحسان في توظيف الصورة فيقول: "فإنما الشعر صناعة وجنس من التصوير"(١)، ولم يرد الجاحظ اللفظ اللغوي ذا الدلالات المحدودة، وإنما أراد اللفظ المعبر عن المراد في جملة مقالة الشاعر، وهي صورة أدبية يتحدث عنها بلغة فنية ترتقي عن مستوى الخطاب اللغوي المألوف؛ فاللغة في نظر الجاحظ الصورة، وهي عنصر من عناصر الفن؛ ولذا جعل الشعر صناعة ومثله النثر الفني، وقرن الصناعة بالتصوير؛ ليؤكد أهمية الصناعة التصويرية في العمل الأدبي، فليست مجرد معنى تكسوه ألفاظ مباشرة، وليس عبارات تقريرية تعرض المعاني العقلية؛ وإنما هو صناعة وجنس من التصوير.

ولم يكن الجاحظ من تفرد بهذه الرؤية النقدية، بل يشركه في ذلك من جاء بعده من النقاد كابن طباطبا في عيار الشعر حيث ربط بين المعاني الشعرية

١- الجاحظ: الحيوان، تحيقيق، عبد السلام هارون، ٣ / ١٣١- ١٣٢.

والنثرية، وبين ما يكسوها به المبدع من التشكيلات اللغوية، والصور والمعارض الحسنة التي تحسن بها، وتزداد بها جمالا فيقول: "وللمعاني ألفاظ تشكلها فتحسن بها، وتقبح في غيرها فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد في بعض المعارض دون بعض، وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه، وكم من معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه، وكم من حكمة غريبة قد ازدريت لرثاثة كسوتها، ولو جلبت في غير لباسها ذلك لكثر المشيرون إليها"[١]

ويعرف عبد القاهر الجرجاني الصورة بأنها "تمثيل وقياس لما نعلمه بقولنا على الذي نراه بأبصارنا ... وإنما الشعر صناعة وضرب من التصوير".[٢]

وعند ابن الأثير الصورة "إما تشبيه معنى بمعنى، وإما تشبيه صورة بصورة كقوله تعالى "وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون"[٣]، وإما تشبيه معنى بصورة كقوله تعالى "والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة"[٤] وهذا القسم أبلغ الأقسام الأربعة لتمثيله المعاني بالصور المشاهدة، وإما تشبيه صورة بمعنى كقول أبو تمام:

فشبه فتك المال بالعدا، وذلك صورة مرئية بفتك الصبابة وهو فتك معنوي، وهذا القسم ألطف **(أدق)** الأقسام الأربعة لأنه نقل صورة إلى غير صورة"[٥]

١- ابن طباطبا: عيار الشعر، تحقيق: طه الحاجري، ومحمد زغلول، صـ٨.

٢- ابن الأثير: المثل السائر ١ / ٢٩٧ وما بعدها.

٣- الصافات ٤٨، ٤٩.

٤- النور، آية ٣٩.

٥- ابن الأثير: المثل السائر ١ / ٢٩٧ وما بعدها.

وعند حازم القرطاجني الصورة قائمة على التناسب بين أركان العمل الشعري والنثري، وأثره في إحداث التأثير في الملتقي، أو ما يسمى بالتخييل الشعري، ويقوم ذلك على التركيب اللغوي للصورة المتخيلة، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال التناسب بين اللفظ والمعنى، فإن أفضل الشعر هو ما أوقع مبدعه نسبا فائقة بين معانيه وصوره"[١]، ويجدد هذا المفهوم بدقة في عبارته: "واعلم أن النسب الفائقة إذا وقعت بين هذه المعاني المتطالبة بأنفسها على الصورة المختارة كان من أحسن ما يقع في الشعر"[٢]

وتمتاز رسائل المناظرة بين السيف والقلم بشعرية الكتابة، حيث يحمل النص النثري سمات النص الشعري بإحالته إلى التخييل، وإحداث أدوات فنية في النثر بطبيعته العقلانية، بأن يكسوه الأديب حلية الشعر؛ فيكشف الصورة، ويحيل المعاني العقلية إلى معاني تخييلية، وهذا ما نلمسه من خلال رسالة ابن نباتة التي مزج فيها مادة النثر موضوع الرسالة، وطبيعة الشعر فحول النص إلى صورة شعرية تكتسي بالخيال، وبالأبعاد الإيحائية، والعناصر الفنية التي تميل بالرسالة إلى قطعة شعرية، يسرح الخيال في تأويل مدلولاتها، وإعادة تركيب الصورة من خلال جمع عناصرها المجزأة إلى صورة كلية ذات غاية نفعية، تنتهي بلذة المتلقي في تناول الصورة وما يلقاه في تتبع التواءاتها والتقاط مكوناتها، فضلا عن صبغة الموضوع الفكري – السيف، والقلم – والمناظرة المنطقية الجدلية بالصبغة الفنية التخييلية، وهذا ما امتاز به عن ابن الوردي

١- مقال قضية اللفظ، والمعنى

http://nfma٣rifa.blogspot.com.eg/٢٠١٤/٠٦/normal-٠-٢١-false-false-false-fr-x-none_٢٩.html

٢- حازم القرطاجني: منهاج البلغاء، وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجه، الدار البيضاء، صـ٤٤- ٤٥.

الذي يقترب منه في هذا النهج، والقلقشندي الذي وقف عند حدود الصورة الفنية المصورة، وبقي النثر لديه مادة أصيلة بأبعادها الفنية والموضوعية.

ويمكن الوقوف على أبعاد الصورة الأولية كالتشبيه، والاستعارة، والكناية في الرسائل الثلاثة من خلال ما يأتي:

التشبيه:

عنى الكُتّاب الثلاثة بالتشبيه، والاستعارة، وأكثروا منهما، وجاءت تشبيهاتهم قريبة مألوفة لا تبتعد عن كونها مصوغة للبيان والإيضاح نحو قول ابن الوردي في سياق وصفه السيف: وأنه ليس في خفته "**لايتناوله كالقلم**"(١) و"**لا يُبَل كما يُبَل القلم**" فالتشبيهان هنا وصفًا مجردًا للقلم لا ينتميان إلى عالم الخيال إلا بما تدل عليه أداة التشبيه، فلا فرق بين القلم خفيف الوزن، رشيق الحركة، والسيف ثقيل الحمل، وله تشبيه آخر لا يقل برودًا عن هذا التشبيه؛ فيصف حالة صاحبي السيف، والقلم بقوله "**صاحب السيف بلا سعادة كالأعزل، وقلم البليغ بغير حظ كالمغزل**" وهما تشبيهان واضحان لا يزيدان الصورة تقريبًا ووضوحًا، فلولا ما جاء فيه من استدراك "**بلا سعادة**" لكان عدلا لقولنا صاحب السيف أعزل، حيث منحه الاستدراك شيئا من الحياة، والبعد الإيحائي للتشبيه، وهكذا في قوله "**بغير حظ**" فاستدرك بها ما يؤول إليه الكلام إذا حذفت؛ فالحظ هو الرابط بين البليغ في حال تلبسه بالبلاغة، والكتابة، وبين سمو المكانة، وإلا تحول القلم أداة خشبية لا أثر لها ولا نقع عقلي يمنح صاحبها الجد والمجد.

أما ابن نباتة فلا تبعد تشبيهاته عما ورد عند ابن الوردي، فقد حشد في رسالته عددًا من التشبيهات، ولكنها تظل في دائرة التشبيه المرسل محذوف

١- رسالة ابن الوردي، صـ١١٩.

الأداة أو التشبيه البليغ، وأحسن في تأليفها، وتركيب جملها التشبيهية، ولكنه لم يخرج بها عن دائرة المألوف، فظل يدور في فلك البحث عن الصور البيانية الموضحة للعرض، فشبه طائره بطائر محلق في السماء، والقلم والسيف يتحدث عنهما كأنهما **حبال جفنه، والقلم كأنما يكتب من نقع، وكأنما هو أمين الدهر، ودعوتهم حالية في الأسماع كالشنوف في الآذان، وكأنه زناد يستضاء به، وأنت كالظفر كونا، وكالصبح نونا**"(١) وهذه التشبيهات ضئيلة الجمال الفني على رغم نفعها في البيان.

ويورد من التشبيهات بيت عمرو بن كلثوم في وصف السيف:

كأن سيوفنا منا ومنهم ** مخاريق بأيدي لاعبينا (٢)

وهكذا ما جاء في تشبيه القلم باليدين في قول ابن نباتة "**أنت للملك كاليدين**"(٣) وفي التشبيه الآخر للسيف "**وأما نحن في تشييده كالركنين ...**"(٤)، فالصورة هنا لم تتجاوز حدود المحسوس، فالقلم كاليدين، والسيف كالركنين.

ورغم توظيف ابن نباتة التشبيه أداة للصورة وبيانًا للمعاني، وتأكيدًا لمضامين الجملة، فإنه لم يتعمق في تكوين صورته، وليس هذا منتهى قدرة ابن نباتة؛ وإنما دفعه إلى ذلك كون الموصوف محسوسًا، وقرب المعاني المتناولة، ولم يفرغ جهده في اختراع الصورة وتأليفها.

١- ينظر رسالة ابن نباتة على الترتيب، صـ١٢٧، ١٢٩، ١٣١، ١٣٣، ١٣٦.

٢- رسالة ابن نباتة، صـ١٣٧، وديوان عمرو بن كلثوم.

٣- رسالة ابن نباتة، صـ١٤٢.

٤- المرجع السابق، صـ١٤٢.

أما القلقشندي فلم يبرز عن التشبيه صريحًا، وجاء في أثناء عباراته محذوف الأداة ووجه الشبه نحو قوله "وطورًا تلفيني جوادًا سابقًا، ومرة رمحًا طاعنًا، وسهمًا راشقًا، ونجمًا مشرقًا" فشبه نفسه بالجواد تارة وبالرمح، والسهم تارة، وبالنجم تارة أخرى، ورغم إحسان القلقشندي في اختياره هذه الأوصاف للقلم ولكنه كصاحبيه، لم يتجاوز الحسي من التشبيه وهذه ظاهرة عامة في استعمال فن التشبيه عند الكتاب الثلاثة في رسائلهم عن مناظرة السيف، والقلم.

الاستعارة:

وهي تشبيه حذف أحد طرفيه ومال الكتاب الثلاثة إلى استعمالها أكثر من ميلهم إلى استخدام التشبيه الصريح، والضمني، وذلك لما تضيفه الاستعارة من تخييل للمعنى، و"قدرتها على تصوير الأفكار والأحاسيس المكثفة التي تنتجها التجربة الشعورية، أو ترافقها في أثناء عملية الإبداع"([1]) والاستعارة يغوص بها الأديب في أعماقه لانتشال ما عرض من أحاسيسه وانفعالاته.([2])

ولا تختلف الرسائل الفنية عن الشعر في استعمال الاستعارة أداة التصوير، ولا يتكلف الكاتب استعمالها في ذلك، فهي أداة الشعرية في النثر، حيث تضفي عليه سمة الخيال، والتقليل من النمط المنطقي، والعقلاني في النص النثري، وتعيين الصورة الخيالية والاستعارة الجمالية على إبراز المعاني في حلل جديدة من اللغة الفنية وتكسبها بعدا معنويًا يزيد في ثرائها، ويمنحها الاكتمال.

١- عدنان حسين قاسم: التصوير الشعري رؤية نقدية لبلاغتنا العربية، ط١، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠٨هـ، صـ١١٦.

٢- السابق، صـ١١٧.

ومن الاستعارات البديعة في الرسائل المناظرة بين السيف والقلم ما ورد في رسالة ابن الوردي خلال حديث القلم للسيف ووصفه بأقبح الأوصاف فاستعار له "**غراب البين**"، "**ذا الوجهين**" وتكمن محاسن هذه الاستعارة في أنها صورة خيالية احتملت مراد الكاتب، وبعثت في المعنى العقلي الحياة، وأوحت بأبعاده وظلاله على المشبه، وأنها من ناحية أخرى استعارة تمثيلية اقتبست من الأمثال والأحاديث النبوية، **فذو الوجهين صورة حقيقية وردت في حديث الرسول (ﷺ) (١) وغراب البين ورد في كتاب الأدب وتكررت صورته رمزا للفراق والبعد.**

وتجري الاستعارة عند الكتاب الثلاثة في الفعل؛ فتأتي تبعية مكنية، حيث تقوم على مجازية الفاعل بإسناد الفعل إلى فاعله المجازي، وإجراء الاستعارة في الفعل نحو ما ورد عند ابن الوردي "قال القلم" و "قال السيف" وصنعت كذا وكذا، وهي صورة متكررة عند الأدباء الثلاثة(٢)، وجارية على ألسنة المتكلمين ومناسبتها للمقام تكمن في أن الحديث صادر عن هذه الجمادات التي أنطقها الكاتب، واستعار فعل العاقل لها، وهي من جانب آخر تجسيد الصورة الذهنية إذا أنيطت بغير العاقل، وقد تقوم بإضفاء بعض الصفات المقبولة عقلا، ونصح في إسنادها إلى العاقل، فتصبح تشخيصًا.

الكناية:

وهي أكثر أدوات الصورة البيانية حضورًا في الرسائل الثلاثة، وأجودها استعمالا من الكُتَّاب؛ ولعل السبب في ذلك أن الوصف يقتضي التكنية عن

١- صحيح البخاري، باب ذي الوجهين.

٢- ينظر رسالة ابن الوردي، صـ١٢٠.

بعض معانيه، والرمز إليه بالكناية، وهذا ما عمد إليه ابن الوردي في رسالته مكنيًا عن السيف وعن خفة حمل القلم وضعفه؛ إذ يتناوله الكاتب بأطراف الأصابع، وذلك بقوله: "**لا يعبث به الحامل**"، وقد يلجأ الكاتب إلى التكنية بصورة من القرآن الكريم، ويستعيرها للموصوف، كما ورد عند ابن الوردي في حديث القلم باستخدامه الآية "**أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين**"([1]) كناية عن ضعف السيف عن البيان وهي استعارة تهكمية بالسخرية من حلية السيف التي لا تمنحه قوة البيان والحال.

ويعمد ابن نباتة إلى الكتابة بشكل لافت حتى تطغى على الاستعارة لإفراطه في استخدامها في كل جزء من الرسالة، ومشهد من مشاهدها، فهو يصف القلم فيورد عدة جمل كنائية متتابعة لتكثيف الصورة فيقول "**ومخارج سحب الخير إذا احتاجت الأمم إلى السقيا، ومفتاح باب اليمن المجرب إذا أعيا، وسفير الملك المحجب... وزمام أموره السائرة، وقائمة جناحه الطائرة...**"([2])

ويكني في موضع آخر عن السيف فيقول "إذا خرج عند قطع الأجساد من بين الصلب والترائب لا يذل جاره، ولا تجحد آثاره، ولا ينكر إقراره، إذا شبت في الدجى والنقع ناره".([3])

وأمثال هذه الكنايات كثيرة في أثناء الرسائل المدروسة، وقد عمد إليها الكتاب لما تحمله من جماليات فنية في الخطاب، وما لها من إيحاءات تصويرية

١- سورة الزخرف، آية ١٨.

٢- رسالة ابن نباتة، صـ١٢٨.

٣- السابق، صـ١٣٢.

تفيد المعنى جلاء وتوضيحا وجمالا، وللكناية من البلاغة والتأثير في النفس وحسن تصوير المعنى فوق ما يجده السامع في غيرها من ضروب الكلام.

ونخلص إلى أن الصورة كانت أداة طيعة بيد الكتاب في التعبير عن رؤيتهم الواقعية للسيف والقلم، وأعانهم على تقريب المفهوم العقلي لبعض المعاني المرادة، ولكنهم لم يفرطوا في استعمالها، ولم يتعمقوا في صناعتها، مما جعلها تميل إلى السطحية، والابتذال في بعض نماذجها.

سابعاً: الإيقاع:

هو ذلك النغم الحادث من تأليف الجمل والألفاظ بجرسها المختلف قوة وضعفًا حسب موقعها في الجملة، والحروف المؤلفة منها الكلمة، وتتظاهر مكونات عدة في تحقيق هذا المطلب المهم في الصورة الإيقاعية للنص.

وليس الإيقاع أمرًا مقصودا لذاته لدى المبدع، ولكنه يتولد من خلال براعة الأديب في اختيار الألفاظ، والجمل والإحسان في توظيف الأصوات بجرسها في صنع الإيحاء، والتأثير الصوتي في الصورة والمعنى تبعا لذلك.

والإيقاع في الشعر إيقاعان؛ إيقاع خارجي عمودي وهو أوزان الشعر، وإيقاع داخلي أفقي في جرس الألفاظ، والعبارات والمحسنات البديعية، والتقسيم ما إليه من أدوات التحسين المستحسنة في البناء الداخلي للنص.

والإيقاع الخارجي هو الوزن "وهو أحد أركان الشعر، ويزيد الصورة حدة، ويعمق المشاعر، ويلهب الأخيلة، ويمنح الشعر والإبداع القدرة على التدفق بالصور والتعابير المبتكرة المهملة".(١)

١- محمد حسن عبد الله: الصورة، والبناء الشعري، دار المعارف، القاهرة، صـ٢١٠، وينظر موسيقى الشعر، محمود عسران، بستان المعرفة، كفر الدوار، ٢٠٠٧، صـ١٤.

أما في النثر فالإيقاع له الأثر ذاته في الشعر، من حيث الجمال الصوري للعمل والإيحاء بالجرس، والصوت، ويضفي جمالا في البناء التشكيلي للنص، وتبقى مكوناته منحصرة في اللفظ المفرد، والتركيب، والمحسنات البديعية، ويمكن تتبع أدوات الإيقاع في الرسائل الثلاثة من خلال المحاور الآتية:

في الألفاظ والتراكيب:

زخرت الرسائل الثلاثة بجملة من الألفاظ ذات الإيقاع القوي، والأصوات المجهورة، والجمل ذات الألفاظ المتوائمة مع المعاني، وتحمل إيقاعًا خاصًّا في حروفه وجرسه.

ومن تلك الألفاظ المجهورة في رسالة ابن الوردي "سطر السطور، العدة لقمع المعتدين، وقال القلم "وكتابي المسطور، والبيت المعمور، والتوراة والإنجيل، والقرآن ذي التبجيل إن لم تكف عني غربك، وتبعد مني قربك..."([1])

فاختيار الكلمات بجرس حروفها الطاء والقاف والعين والغين واللام، من الحروف المهجورة، منح الإيقاع أثرا قويا في جمال الصورة وقوة أدائها للمعنى، ونحو منه قوله "**إن كنت أعلى فأنا أعلم، أو كنت أحلى فأنا أحلم، أو كنت أقوى فأنا أقوم،...**"([2])

أما ابن نباتة فنجد ألفاظه تمتزج فيها الأصوات المهموسة والمهجورة، ولا يخلو جزء من الرسالة دون أن يحشد فيه جمعًا من الألفاظ والجمل ذات الإيقاعات المختلفة والمتباينة صوتًا، ومن ذلك قوله: " **وإن اجتمعت رعايا الصنائع؛ فإنما هو إمامها المتلفع بسواده، وإن زخرت بحار الأفكار؛ فإنما هو**

١- رسالة ابن الوردي، صـ١٢٢.

٢- السابق، صـ١٢٢.

المستخرج درها من ظلمات مداده، وإن أوفى بجلب النفع، وإن أوعد أخاف كأنما يكتب من النفع..."(١)

ويلحظ الجمع والتأليف بين الألفاظ القوية في إيقاعها، وبين المهموسة الحروف مثل السين والزاي، وبين الجمل، والمتضادة بالطباق والمقابلة مما أحدث صوتًا انفجاريًّا ألقى بظلاله على النص، وزاد من وقعه في الأذن، والتلذذ بصورته.

المحسنات البديعية:

من أهم السمات البارزة في الرسائل الثلاثة كثرة المحسنات البديعية، وارتبطت كثرتها، وورودها في النص، بالإطناب عند ابن نباتة خاصة الذي غلب على أسلوبه في رسالته الإطناب والترادف؛ أما ابن الوردي، والقلقشندي فقد سبقت الإشارة إلى ميلهما للإيجاز والبعد عن الإسراف في المحسنات، وترادف الجمل، والاستقصاء المفضي إلى الإطناب الممل.

وهذه الرسائل وإن كانت من الرسائل الاجتماعية التي يترك فيها شأن الإطناب وعدمه إلى الكاتب فإنه من المستحسن أن تبنى على صفة متوسطة الطول والقصر، ورغم ذلك فإن كثرة المحسنات قد كونت الإيقاع الداخلي للنص والجناس والسجع والطباق والمقابلة خاصة.

ومن أمثلة السجع قول ابن الوردي: "**فإن للقلم قصب السباق، فالكاتب بسبعة أقلام من طبقات الكتاب في السبع الطباق، جرى بالقضاء والقدر، وناب عن اللسان فيما نهى وأمر، طالما أربى على البيض والسمر في ضرابها وطعانها، وقاتل في البعد، والصوارم في القرب نائمة ملء أجفانها...**"(٢)

١- رسالة ابن نباتة، صـ١٢٩.

٢- رسالة ابن الوردي، صـ١١٨.

وهذه التنوع أعطى التنغيم الموسيقي في السجع جمالا، وإن لوحظ التكلف في الجمل الثلاثة الأولى.

ومنه عند ابن **نباتة** فقد غلب على أسلوبه في الرسالة قوله "فيها بشرى من ترك عناده، وكفى جداله وجلاده، فكم اتخذ من جسد طرسًا، وكتب عليه حرفًا، **لا ينسى منه للألباب عبرة، وللأذهان السانحة غمرة بعد غمرة، وللأقلام بخبراتها من ... المشبهة أجنحة الطير مثقال ذرة...**"([1])

وحفلت الفقرة السابقة، وهذا النص النباتي بميزات أسلوبية متعددة، فقد جمع فيه الكاتب بين التوازي في الجمل طولا وقصرا، والتزامه السجع، واختياره الكلمات الموقعة توقيعا حسناً مما أضفى عليه جمالاً أسلوبيًّا. فضلا عن وضوح الفكرة رغم كثرة السجع وطغيانه على الفكرة الأساس.

أما الطباق فسمة عامة في الرسائل كالسجع، والجناس، وهو طابع أسلوب الكتابة في العصر، فلا تخلو الرسائل والنثر بعامة في عصر الدول المتتابعة في الأدب العربي وعصر المماليك من بعد من العناية بالطباق والجناس، ويلازم الطباق المقابلة، ولا نعدم أمثلة كثيرة ومتكررة في الرسائل، ومنها ما جاء في رسالة القلقشندي في مفاخرة القلم للسيف "أصل وتقطع، وأعطي وتمنع، وتفرق وأجمع" فهذه ألفاظ طباق جمعها الكاتب للتعبير عن معان رئيسة في وصف السيف، والقلم، وهي جمل متقابلة بتلك المعاني الموصوف بها الاثنان، وقد منحت النص بعدا إيقاعيا بهذا الصوت المتهدج عند قراءة جمل متقطعة متوازية، ومسجوعة أيضًا.

١- رسالة ابن نباتة، صـ١٣٤.

ولا أريد الإسراف في ذكر نماذج الطباق، والمقابلة في نص الرسائل؛ فهي ظاهرة متكررة فيها جميعًا، وقد عمد إليها الكُتَّاب عمدًا باعتبارها أصلاً فنيًّا من رسوم الكتابة.

وهكذا الجناس المكون والمحسن البديعي بزخرفته الشكلية والصوتية، وما يلقيه من الظلال الموحية على المعاني، وما يمنحه الصوت الموقع في الكلمات المتجانسة من قوة في أداء المعنى، ويكثر الجناس في نصوص الرسائل كثرة العنقود البديعي فيها، فلا يقل كثرة عن الطباق، والمقابلة، وهو أيضًا من رسوم الفن؛ لذا عنى به الكتاب الثلاثة، وأكثروا منه كثرة ملحوظة في رسائلهم.

ومن نماذجه ممزوجًا بالطباق والمقابلة مما يظهر عناية ابن نباتة بهذه الألوان البديعية، والزخارف الصوتية المؤثرة قوله على لسان القلم: "**أتفاخرني وأنا للوصل وأنت للقطع، وأنا للعطاء وأنت للمنع، وأنا للصلح وأنت للضراب، وأنا للعمارة وأنت للخراب، وانا للجمع وأنت للشتات،... وأنا المثمر وأنت المدِّمر، وأنت المأمور وأنا المؤمِّر، وأنت المقلد وأنا صاحب التقليد، وأنت للإبادة وأنا للتأبيد....**"([1])

ويسير ابن نباتة بهذا النمط الأسلوبي صفحات من الرسالة يثبت فيها قدرته على التلاعب بالألفاظ وصياغة الجناسات والطباق والمقابلات دون أن تعوقه اللغة مما يدل على تراثه المعجمي، وسعة مفرداته، وندرك من بعد مدى ما أعطته هذه الألوان النص من الإيقاعات التي خلفت جوًّا مفعمًا بالإيحاء من خلال الجرس والصوت والنبر، والتوازي في الجمل.

١- رسالة ابن نباته: مجلة المورد، ص ١٢٥.

خلاصة البحث

بعد هذه الجولة الماتعة في أثناء هذه الرسائل التي تناولت موضوعًا يكثر الحديث فيه شعرًا ونثرًا، ويتبارى الشعراء والكتاب في ذكره، ووصفهما وتقديم رؤاهم ومواقفهم حولهما.

وقد تناول البحث مضامين الرسائل في **وصف السيف والقلم**، حيث كان الحديث في المبحث الأول عن خصائص القلم وخصائص السيف، والمفاضلة بينهما، ورغم تباين ميول الكتاب نحو أحدهما، إلا أنهم تركوا الحكم إلى من تقدم له الرسالة، وهو الوزير الكاتب الذي عرف بفضله وكرمه، وسمو مكانته في الكتابة.

وحاول الكُتّاب الثلاثة أن يقدموا في مطلع رسائلهم سبب إجراء المناظرة، وإنشاء الرسالة ومن المساواة بين الأداتين، ثم ينطقهما بالمناظرة واستعراض البيان في ذكر الفضائل ودحض الحجج وتقديم البراهين، وتقديم الأدلة حينًا واستعمال الأسلوب التهكمي مرة أخرى، كما يركزان على الاقتباس في أثناء الرسائل من **القرآن والحديث**، والجمع بين **الشعر والنثر** في الرسالة الواحدة، ويزيد ابن نباته على صاحبية في ذلك.

أما المبحث الثاني فقد حدد الخصائص الفنية للرسائل الثلاثة، وبدءًا من دراسة البناء الفني للرسالة الذي قام على المقدمة والتخلص والموضوع، وتنوع المادة والخاتمة، كما تباينت طرق الكتاب في المقدمة، حيث يدلف ابن الوردي إلى المناظرة دون مقدمات خارجية، وعلى خلاف ذلك ما صنعه ابن نباته المصري، والقلقشندي في رسالتيهما، فقد قدما للمناظرة بمقدمة منفصلة عنها، ثم

قدم القلم في كل منهما بمقدمة أخرى تتخذ الأسلوب الخطابي في المقدمة منهجًا لها، ويجعل للسيف مقدمة أخرى في بدء مناظرته للقلم.

وبذا تعددت المقدمات عندهما، ولكنها جاءت على لسان السيف والقلم جزءًا من المناظرة والمفاخرة، وتقدمة لها.

كما اتسمت الرسائل بكثرة الاقتباسات من القرآن والحديث، والتضمين والتناص مع التراث، والجمع بين الشعر والنثر، مما جعل هذه الظاهرة سمة أسلوبية امتازت بها الرسائل الثلاثة.

وقد عمد الكُتّاب الثلاثة إلى استعمال الصورة البيانية في الرسالة، والتعبير بها عن معانيهم، وتصوير عواطفهم واحتل التشبيه والاستعارة المقام الأول في الصورة، وقلت الكناية أو تداخلت في مواضع من الرسائل مع الاستعارة، بتعدد احتمالات تفسير العبارة، وحملها مع أي النوعين من الرسائل التصويرية.

وبعد فهذا جهد المقل في تحليل الرسائل الثلاثة وقد حاولت دراسة النصوص الثلاثة مقارناً بينها، وذكر الفروق في المضامين والوسائل التشكيلية المستخدمة في النصوص.

ولا يزال البحث في الرسائل الأدبية مجالاً خصبًا، يدعو الباحثين في السرد والنثر بعامة أن يرتادوه، ويقدموا فيه الدراسات النقدية التحليلية التي تكشف جماليات الخطاب في الرسائل الأدبي، وجماليات التشكيل الفني فيها خاصة.

والحمد لله أولاً وآخراً

المصادر والمراجع

١. ابن الوردي: **رسالة السيف والقلم**، ت: هلال ناجي في مجلة المورد، مج ١٢، عدد ٤، بغداد، ١أكتوبر١٩٨٣.

٢. ابن فارس: **مقاييس اللغة**، ت عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩.

٣. ابن منظور: **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ.

٤. ابن نباتة: **رسالة السيف والقلم**، ت هلال ناجي في مجلة المورد، مج ١٢، عدد ٤، بغداد، ١أكتوبر١٩٨٣.

٥. أبو الحسن علي بن بسام: **الذخيرة في محاسن أهلى الجزيرة**، ت: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د ت.

٦. أبو الطاهر محمد بن يوسف السرفسطي: **المقامات اللزومية**، ت: حسن الوراكلي ، جدار للكتاب الجامعي – عمان ، د.ت.

٧. أبو القاسم الكلاعي: **إحكام صنعة الكلام**، ت محمد رضوان الداية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦.

٨. أبو محمد علي بن محمد ابن حزم: **رسائل ابن حزم الأندلسي**، ت، إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت، د.ت

٩. أبو هلال العسكري: **جمهرة الأمثال، ت محمد أبو الفضل**، دار الفكر، بيروت، ٢٠١٠.

١٠. أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ت: يوسف علي الطويل، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٧.

١١. أحمد زكي صفوت: **جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهـرة**، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.

١٢. الجاحظ: **البيان والتبيين**، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط ٧، القاهرة،١٩٩٨.

١٣. حازم القرطاجني: **منهاج البلغاء، وسراج الأدباء**، ت: محمد الحبيب بـن الخوجة، الدار البيضاء، د.ت

١٤. حسن إسماعيل خلف: **رسائل المهلب بن أبي صفوة، دراسة أدبية فنيـة**، مجلة جامعة تكريت

١٥. الحموي: **معجم الأدباء**، تحقيق: إحسان عبـاس، دار الغـرب، بيـروت، ١٤١٤ هـ

١٦. الراغب الأصفهاني: **محاضرات الأدباء ومحـاورات الـشعراء**، مكتبـة الحياة، بيروت، ١٩٦١م.

١٧. شريف راغب العلاونة: **المفاضلة بين الشعر والنثر في التراث النقـدي الأندلسي**، مجلة كلية الشريعة للدراسات الإسلامية واللغة العربية وآدابها، ط١٨، ١٤٢٧هـ

١٨. شوقي ضيف: **الفن ومذاهبه في النثر العربـي**، دار المعـارف، ط ١٣، القاهرة، د.ت

١٩. طاش كبرى زاده: **الآداب في علم البحث والمناظرة**، ت حايف النبهـان، الظاهرية الكويت،٢٠١٢.

٢٠. طه حسين: **من حديث الشعر والنثر**، دار المعارف، القـاهرة طــ١٢، ٢٠٠٤.

٢١. عدنان حسين قاسم: **التصوير الشعري رؤية نقدية لبلاغتنا العربية**، مكتبة الفلاح، ط١، الكويت، ١٤٠٨هـ.

٢٢. مجمع اللغة العربية بالقاهرة: **المعجم الوسيط**، دار الفكر، بيروت، د. ت.

٢٣. محمد حسن عبد الله: **الصورة، والبناء الشعري**، دار المعارف، القاهرة، د.ت

٢٤. محمد فتوح أحمد: **النثر الكتابي في العصر الأموي**، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٩م.

٢٥. المرزوقي: **شرح ديوان الحماسة**، ت: أحمد أمين، عبد السلام هارون، دار الجيل، ط١، بيروت،١٩٩١.

٢٦. نبيل رباح: **نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي ٦٥٦هـ**، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩٣م.

٢٧. نهلة فيصل الأحمد: **التفاعل النصي، التناصية بين النظرية والمنهج**، كتاب الرياض، مؤسسة اليمامة، الرياض، ١٤٢٣ هـ.

٢٨. نوار بالة: **أدبية الخطاب النثري عند القاضي العياض**، ماجستير جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر،١٤٣٠هـ.

٢٩. اليوسي، **زهرة الأكم في الأمثال والحكم**، ت محمد حجي، الشركة الجديدة، ١٤٠١هـ.

الفهـــــرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١٠٥
التمهيد	١٠٨
الفرق بين الشعر والنثر	١٠٨
مفهوم المناظرة في اللغة والأدب	١١٢
المبحث الأول: مضامين المناظرة في الرسائل الثلاثة	١١٤
الغرض من إنشاء الرسالة	١١٤
وصف القلم وخصائصه	١١٦
وصف السيف وخصائصه	١٢١
المبحث الثاني: الخصائص الفنية في الرسائل الثلاثة	١٣٠
بناء الرسالة	١٣٠
مقدمة الرسالة	١٣٢
التخلص	١٣٥
غرض الرسالة	١٣٨
الثناء على السيف والقلم	١٣٨
الوصف	١٣٩
تنوع مادة الرسالة	١٤٠
الاقتباس	١٤٢
الخصائص الأسلوبية	١٤٥
الألفاظ والتراكيب	١٤٦

الصورة	١٤٩
التشبيه	١٥٣
الاستعارة	١٥٥
الكناية	١٥٦
الإيقاع	١٥٨
في الألفاظ والتراكيب	١٥٩
المحسنات البديعية	١٦٠
خلاصة البحث	١٦٣
فهرس المصادر والمراجع	١٦٥
فهرس الموضوعات	١٦٨